رضوى والنونو

١

رضوى والنونو
قصص
محمد بهاء الدين فودة
الطبعة الأولى : ٢٠١٤

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل : ٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

تصميم الغلاف : إيمان صلاح
إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٥٠٢٠
رقم الترقيم الدولي : 978-977-6412-63-7

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

محمد بهاء الدين فودة

رضوى والنونو

رضوى والنونو

قصة قصيرة في أجزاء

الجزء الأول

تجمدت نظرات رضوى إبنة الإثنا عشر ربيعا على الصورة المؤلمة التى ينقلها التلفاز لمشهد جنازة الأم وأطفالها الأربعة ظهر ذاك اليوم الحزين من الأيام الأخيرة لشهر أبريل عام٢٠٠٨وقد أسجيت جثة الأم على المحفة ومن ورائها جثث الأطفال الذين لايتجاوزعمر أكبرهم أربعة أعوام بين أيدى ذويهم تلفهم أكفان من الأعلام الفلسطينية لفا كاملا فيما عدا وجوههم التى تركت مكشوفة ليرى العالم أجمع الذى طال صمته نظرات تلك الأعين البريئة الخابية التى إنطفأ نورها وعلامة إستفهام حيرى تتساءل على إستحياء بأى ذنب حكم عليهم بالإعدام بقذائف الأسلحة الذكية التى أطلقت فوق بيوتهم من طائرات تركب الغمام ومافائدة الأمنية العظمى التى جناها المعتدى من وراء إستلاب الحياة من أجسادهم الطاهرة وهدم بديع صنع الله .. والخلق من حولهم بالمئات يكادون من شدة جزعهم وأسفهم أن ينفلت زمامهم ويتخطفونهم من الأيدى ليحولوا بين هذه الأجسام الطاهرة وبين الرغام ! .. كما لوكان يحدوهم الأمل أن يعيدهم الخالق (سبحانه) الى الحياة رحمة بهم وبذويهم الذين تفطرت أفئدتهم حزنا عليهم .. وهكذا إنغرست عينا الصغيرة رضوى فى تأمل ماتراه من هول المشهد الجنائزى فى صمت عميق طال فيه غيابها وشرودها وكأنها إنتقلت معهم إلى الحياة الأخرى أو على شفا ذلك كما توهم والدها الذى أسرع ينقذها فأغلق التلفاز وأمسك بها من منكبيها وطفق يهزها بشدة وينادى عليها بإسمها بصوت عال أزعج كل آل البيت فجاءوا يهرولون من كل مكان بهلع يتساءلون عما عساه قد حدث وتنفسوا الصعداء عندما سمعوا صوتها يتهدج وهى تبكى قائلة :

- بابا .. أنا عايزه « نونو « !

ورمق الأب إبنته (الأثيرة لديه) مشفقا عليها ما تعانيه من جراء ما رأته

فى التلفاز منذ لحظات وألقاها على صدره الحنون مربتا على ظهرها فى حركة سريعة متلاحقة عسى أن يتكفل حنان الأبوة الصادق بتبديد ما أرهق أحاسيسها البكر المرهفة وهو يهمهم معاتبا الأم :

- ألم أنبه بعدم مشاهدة القنوات التى تنقل مناظر جنازات الشهداء الفلسطينيين التى تتزايد كل يوم و ...

وقاطعته الفتاة مكررة بإصرار ونفاذ صبرودون وعى وبصوت محزون :

- بابا.. عايزة نونو !

فتدخلت الأم قائلة وكأن كل همها الدفاع عن نفسها :

- تلقى وعدك .. هذه آخرة تدليلك لها !

وسكنت لحظة ثم إستتلت :

- إننا إن أغلقنا تلفازنا فلا نضمن ألاتشاهد تلك المناظر فى أى تلفاز آخر !

وأومأ الأب لها برأسه موافقا وقال مهونا الأمر :

- معك حق والله !

وسكن هنيهة بدوره وأضاف فيما يشبه العذاب منفعلا :

- أنا لاأدرى ماذا أفعل .. أنا لاأستطيع أن أقلل من حبى لها لأتمكن من مواجهتها بحسم وحزم !

وسكت ثانية ليبتلع ريقه وإسترسل :

- هيا .. تصرفى معها بكلامك الحلو المؤثر حتى تفهم أن الشهداء الصغار أبرار وانهم طيور الجنة الوهاجة الأجنحة !

وانتحت الأم بإبنتها جانبا وأسرت فى أذنها حديثا عن أنها كانت آخر « حبات العنقود « متعمدة ألا يسمع أحد غيرها ماتقوله لها لتشعرها بأهميتها - على عادة الأطفال - ثم أتمت كلامها قائلة بصوت علا بغتة :

- قدأرضانا الله سبحانه ورزقنا بالبنت والولد .. بارك الله فيك وفى أختك وأخيك .. فقط نربيكم تربية حسنة !

بيد أنها فوجئت بإبنتها تسألها :

- أى عنقود يا ماما .. هل أنت شجرة عنب ؟!

وتعمد الجميع إعتبارها دعابة لإشاعة روح المرح فى نفسها وفى جو البيت الذى ران عليه الأسف الشديد والحزن الكئيب لما شاهدوه منذ قليل فى التلفاز فتناوبوا الضحك وهم يتبادلون نظرة تفاهم ولما وجدوا أنها شاركتهم من حيث لاتدرى الضحك أمعنوا فيه لدرجة القهقهة غيرأن الصغيرة وعلى حين غرة أجهشت بالبكاء جهيشا محزنا كأنها تذكرت أمرا يبدوأنه توغل كثيرا فى أعماقها وحفر لنفسه من الأخاديد ما ينبىء بأنه سيستقر فيها مدى الحياة فإحتبست الأصوات فى حناجرهم وماتت ضحكتهم وتبادلوا علامة إستفهام كبرى عما عساه يكون قد حدث للصغيرة المسكينة وبعثت الأم بعينيها للأب رسائل الإسترحام والرجاء أن يغوص فى أعماقها ويقتلع بما له من تأثير خاص عليها الأحزان من منابتها ويطفو بها من الأعماق الغريقة إلى سطح الوعى الذى مهما كان مشحونا بالمآسى والألام فإنه أكثر أمنا من القاع .

الجزء الثانى

لم يفكر الأب طويلا .. كان يعرف بخبرته وثقافته وسعة إطلاعه أن إبنته إستنزفت قدرا كبيرا من طاقتها النفسية فى الإنفعالات التى إكتنفتها وهى تشاهد جثث الأم واطفالها الصغار وكان بينهم رضيعا لايتعدى عمره بضعة أشهر وأن تعويض بعض هذه الطاقة يستلزم « تجديد الهواء « ولذلك أومأ للأم برأسه متفهما ونظر فى ساعة يده وإلى النهار من خلال النافذة وأومأ برأسه ثانية لكن هذه المرة كانت لنفسه وهو يردد فى صوت خفيض :

- حمدا لله أن اليوم يوم عطلة وأننا مازلنا نمتلك ناصية النهار .. ماشى ! هيا بنا يا حبيبتى ....

وإجتذب إبنته من يدها وهو يتمتم لها مردفا بمرح من يداوى جراحا :

- سأطير بك بين المتنزهات والملاهى .. سأجعلك تحلمين بتلك الفسحة طول العمر !

- دريم بارك يا بابا !

- إلى « دريم بارك « لنذهب من فورنا !

- أحبك يا بابا !

- هيا يا ملاكى !

وعلى إستحياء ترددت على وجه الأم بداية إستبشار وتفاؤل وانية وتورد هذا المحيا المعذب قليلا وهى تتنهد وتغالب لتتناسى صور المأساة التى عرضها التلفاز والتى سببت لإبنتها الصغرى بل وللكبرى أيضا ولشقيقها وللأب ولها ولكن بقدر متفاوت تلك الآلام المبرحة للنفس والتى لايتحملها بدن يحوى أقل قدر من الإحساس والتعاطف الإنسانى وناهيك عن أواشج وعرى القرابة بحكم وحدة المنشأ والقومية والقضية والمصير ..

- إن الشقيق الفلسطينى يحارب نيابة عن باقى أفراد الأسرة لا عن وطنه ووجوده فحسب كما يتصور بعض من تخلى عنه من أشقائه سواء كرها أو

طوعا .. إنها عين ألقضية التى إنتصر فيها صلاح الدين وحرر الأقصى والقدس من الهجمة التى تأتى دوما من الغرب وما الدولة العبرية هذه المرة إلا « مخلب قط « !

وإنتبهت الأم من معركتها الصغيرة مع نفسها إلى صوت المتحدث وخالت لأول وهلة أن أحدا أعاد فتح التلفاز وإنبرت لتعنيف من قام بذلك فإذا بها تكتشف أن الصوت كان لإبنها وهو يتجاذب أهداب الحديث مع شقيقته وبدا لها أنه كان يقرأ أفكارها وأفكار الجميع ومع ذلك أوصته وأخته أن يحبسا - ولو مؤقتا - تلك الأفكار داخل برجى عقليهما لأن فى البيت « مشكلة « وإن سرت روح الحديث بينهم على هذا النحو فستتفاقم ولن تفلح الجهود المبذولة لإقالة أختهما الصغرى من كبوتها النفسية ويبدو أنها مست فى أعماق الولد والبنت وترا حساسا لأن وجهيهما إمتقعا بغتة فى توقيت واحد وبدا انهما على وشك البكاء ولم تفهم الأم المسكينة إن كان مرد ذلك حكم الموقف عموما أم أنها إرتكبت بقولها خطأ وتنازعتها إنفعالات شتى فلم تتحمل وأنشجت تبكى وهى تتساءل حيرى ومعذبة وعيناها تنظران لأعلى :

- رباه .. ماذا حدث لنا جميعا ؟

وتسمر الإبن فى وقفته على حين تحركت الفتاة إلى أمها مدفوعة بنوازع الرحمة والحنان وإحتضنتها وهى موزعة بين تكفيف دموعها ودموع امها مغمغمة :

- إننا جميعا فى الحقيقة نعانى لارضوى وحدها ولا خلاص لنا إلا بأن نهتف فى الشوارع قائلين للشعب الفلسطينى .. لست وحدك !

نطقت تلك الكلمات وأسرعت تهرول خارجة من البيت وشقيقها فى أعقابها كأنهما أزمعا على الفور تنفيذ ما جرى على لسانها من البحث عن تظاهرة للتضامن مع الأشقاء الذين قدر لهم أن يحرقوا - أرضا وبشرا - بأيدى من سبق لهم ان عانوا ويلات - المحرقة التاريخية - التى أضرمها ويتحدث عنها

الآن بكل الإجلال من ينتمى للعالم الغربى الذى يساندهم الآن بكل قواه تكفيراعن ذنبهم ولتحقيق المأرب التاريخى الذى حال الناصر « صلاح الدين « بينهم وبين تحقيقه وعبثا حاولت الأم إيقافهما بالنداء عليهما أن يرجعا فإنهما سرعان ما تواريا عن ناظريها فارتمت على إحدى الأرائك منهارة وواصلت البكاء إلى أن تعبت وراحت فى النعاس ولم تدر بنفسها ولا كم من الوقت نامت إذ فوجئت عندما إستيقظت بالليل قد أرخى سدوله وبالظلام يعم البيت فقامت متثاقلة وأنارت كل الأرجاء ودلفت إلى المطبخ وتشاغلت بإعداد الطعام لمن تترقب عودتهم بين لحظة وأخرى ودعت الله أن يجىء بالعواقب سليمة وألا يكون قد تعرض أحد من اسرتها لمكروه وفيما هى كذلك دخل الأب حاملا إبنته وبادرها قبل أن تجزع موضحا أنها الآن على خير مايرام وانها نائمة لاأكثر وعندما سألها عن الإبن والإبنة الأخرى إستشعر فى لهجتها قلقا شديدا فطمأنها عليهما مؤكدا لها بالقول السائد حاليا بين العامة تبريرا لكل ضروب التقصير « أن كل فى شغل بأمر نفسه وأن لاأحد لديه وقتا للإهتمام بأحد لدرجة ظهور أعمال مسرحية عن « مدرسة المشاغبين « وعن « أخويا هايص وأنالايص !» وعن « الشاهد اللى ماشافش حاجة « .. وماما أميركا ! وختم خطبته وهو يضع برفق إبنته على الأريكة التى كانت تنام عليها الأم منذ قليل قائلا :

- بإختصار .. كل شىء هادىء فى الشارع .. وعما قليل يحضران ..

وماكاد ينتهى من قوله حتى دخل عليهما كل من الفتى والفتاة فى إثر بعضهما والإرهاق الشديد باد عليهما وبداأنهما يقاسيان أكثر من خجل أوخيبة أمل .. وتظاهر الوالدان بأنهم لايلحظان شيئا مخافة أن يتطور مايشعران به إلى إحباط .. وتناولت الأسرة وجبة الغداء فى وقت العشاء لما وقع من امور غير مؤاتية فى هذا اليوم وأووا جميعا إلى فراشهم وكلهم أمل أن يكون الغد أفضل .. ولكن الغد أتى بما لم يخيب رجاءهم فحسب .. بل بما أسقط قدرتهم جميعا على فهم الموقف وتصديق ما تراه أعينهم .....

الجزء الثالث

فقد عادت رضوى من المدرسة وبين ذراعيها .. لا ليست حقيبتها المدرسية - فهذه مكانها دوما فوق ظهرها - وإنما وليد رضيع لايتجاوز عمره بضعة أيام ! .

كان ملفوفا بعناية فى أغطية جديدة تناسب طقس الشتاء على الرغم من أن الدنيا كانت ربيعا والجو بديعا ودخول الصغيرة بمولود قد أقفل كل « المواضيع الطبيعية « التى يمكن لأى قريحة بشرية تخيلها ..

وكانت لاتصدر عنه أية روائح غير رائحة الأطفال حديثى الولادة مما رجح أنه ألقى به فى الشارع قبيل أن تلتقطه «رضوى» التى لم تتردد لحظة عن حمله إلى البيت وكأنها عثرت على ضالتها أو « كنز « وعلى حدقولها :

- كان بجوار سور الحديقة .. لم يكن ملفوفا بالأغطية ..بل بعلم فلسطين ؟! أنا الذى لففته بالأغطية .. كان يرقص برجليه رقصة محببة بديعة ! كأنه يدعونى إليه ! ويصدر أصواتا يناجينى بها ومع ذلك إقتربت منه وأنا خائفة .. خشية ان يرانى أحد من أصله ! ولما إطمأننت زدت إقترابا حتى طالعت علم فلسطين ووجهه ! الذى كف عن المناغاه والنهنهة وابتسم - ترقبا لى - إبتسامة حلوة وتوالى ترفيصه برجليه وكأنه فرح لمرأى أمه ! فلم أملك نفسى والتقفته من الأرض القاسية وألقيت به فى حضنى وأنا أبكى بصوت غير مسموع كيلا ألفت الأنظار ولاأدرى لم كأننى كنت أسرق !

وسكتت عن الكلام المثير هنيهة تنهدت إبانها تنهدة حرى من أعماق صدرها وكأنها تطرد عنه هما ثقيلا واستطردت فيما يشبه التضرع :

- وجئت به إليكم .. بالله يا بابا .. دعه لى .. إنه لاجىء فلسطينى ! .. نع .. نعم حيث الحياة هناك لاتناسب وليدا جميلا مثله .. نعم .. نعم لا ألبان ولا أدوية فى الأجزخانات ! وبرد وظلام بسبب الحصار الذى يفرضه العدو لتركيع الشعب قد قال لنا ذلك أساتذة الدين والدراسات الإجتماعية .. وسمعته فى

نشرات الأخبار .. بالله لنكفله فى بيتنا .. إنه يتيم ولاجىء فلسطينى ! أنا عايزه «نونو» .. عايزه هذا النونو بالذات !

همهمت بها بمزيد من الرجاء والتوسل وانخرطت فى بكاء له نبرات أخرى موجعة غير الذى إعتادوه منها قبلا عندما كانت تطلب شيئا غيرملائم من قبيل « دلع آخر العنقود « وكأنها تكابدعلة ما داخل نفسها .. وكان جميع أفراد أسرتها حتى هذه الآونة ما زالوا يحدقون فاغرى الأفواه من شدة الدهش وعدم التصديق لما يرونه ويسمعونه ومضى وقت طويل .. ثقيل الوطأة على الأنفس المتحيرة التى أخذت بما تجرى عليه أمور تلك الطفلة الغريبة المتسلطة التى يبدو أن شراع توازنها وإتزانها قد غادر موانيها الآمنة إلى أعالى بحار الظلمات .. وأنه لا أمل فى أن يبلغ بها بر الأمان كرة أخرى إلا بمعجزة من الله الرحمن الرحيم .. وما لبث الأب لسعة أفقه وعميق إدراكه أن تمالك رباطة جأشه ونظر إليها وفؤاده يختلج داخل صدره إشفاقا على صغيرته وقال لها بصوت رفيق :

- ولكن يا رضوى .. هذا ليس إبننا وهناك مسئولية جسيمة علينا وعلى بابا حبيبك بالذات لو أننا إحتفظنا به دون أن نخطر السلطات عنه .. ماذا حدث لك ياحبيبتى ؟.. الله يهديك ..

صاحت بفصاحة متناهية لايدرى أحد من أين واتتها :

- عن أية مسئولية جسيمة تتحدث ياأطيب أب .. قلت لك أنه لاجىء فلسطينى ويتيم ويحق له أن نكفله إن لم يكن بإسم ديننا فبإسم الرحمة .. إنه عزيز قوم يأبى حصار وذل المحتل الغاصب !

- لاحول ولاقوة إلا بالله !

واحتواها الأب بين ذراعيه بوليدها الذى كان يلتصق بصدرها وادعا هادئا مطمئنا كما لو كان صدر أمه وراح يربت والدموع تسح من عينيها من فرط الوجد والتحنان فطفرت من عينه هو الآخر دمعة حدب وعطف وهو ينقل البصر بينها وبين الوليد ليمتص إنفعالاتها الباطنة التى لم تكن على المرام

وحذت الأم حذوه وكذلك شقيقتها وعاد الأثنان للمراقبة على حين واصل الأب حديثه فى رقة متناهية قائلا :
- علينا أن نسلمه للشرطة وهى تتصرف مع الجهات الإجتماعية المختصة ..
هتفت بتوسل وهى تبعد «خدها» الذى ألصقته بمحيا الوليد :
- ولكنى أريده !
خرج الأب عن هدوئه بغتة وقال مؤكدا بإنفعال :
- ليس إبننا .. وليس من حقنا الإحتفاظ به .. هذا ليس لعبة .. إنه إنسان من حقه إسم وأم ترضعه وأسرة تكفله حتى يكبر ويصبح من حقه التعليم وباقى حقوق الإنسان التى تعرفينها والتى درستها فى كتاب المطالعة يا رضوى !
وتلقفت الأم الخيط من الأب لتخفف من إنفعاله وقالت مكملة حديثه :
- بكرة تكبرى يارضوى وتتزوجى ويكون لك طفل أجمل منه !
صاحت بضيق ذرع وهى تنهنه من بكاء تحول جاهدة أن توقفه :
- باقى سنين طويلة حتى يتحقق لى ذلك ! وقد لاأتزوج بسهولة .. أو أصير عانسا مثل كثيرات فى أيامنا هذه .. ألا تعرفون مشكلة العنوسة ؟!
فغر الوالد فاه دهشا مما يسمع ولم ينطق بكلمة على حين راوغتها أمها مجارية إياها قائلة :
- ليكن .. تاهت ولقيناها .. ستتزوج أختك أو أخوك وينجب أحدهما ويكون معك طفل !
- يا سلام ولم لايكون طفلى أنا !
وصمتت لحظة ثم إسترسلت فى براءة لاحدود لها وكأنها تذكرت أمرا هاما وهى تكفكف دمعها :
- قلت لكم أنه فلسطينى لاجىء بدليل علم فلسطين الأخضر فى أحمر الذى وجدته فى حاشيته .. وهاهو .. أين ذهب .. أين هو ..
وطفقت تفند حواشى لفائف الوليد إلى أن عثرت به فإستخلصته ونشرته بيدها الحرة التى لاتحمل الطفل فى الفراغ أمامهم .. كان علم فلسطين فعلا

وحدق الجميع فيه وسؤال زاعق يرتسم فى أعينهم « لله درك يا رضوى أنى لك هذا العلم « بينما ردت عليهم هى فيما يشبه نظرة ولهجة الإنتصار قائلة :

- صدقتم .. وهو ليس لقيطا ولا بحاجة لإسم .. إن له إسم .. يوسف خليل جامع ! .. هذا هو أسمه فى شهادة ميلاده .. وهاهى شهادة ميلاده ..

الجزء الرابع

-- إنهم شعب الجبارين .. !!

وتوقفت أنامل رضوى عن تفنيد حواشى لفائف الوليد باحثة عما تزعم .. ولم يكن سبب توقفها ما إخترق أذنيها من قول الأب الذى واصل :

- لقد خلق العدو الذى يقبع عندما تلتوى رقبة البحر وتنتهى حدود سيناء لنفسه شعبا كالجبال لاتهزه ريح !

وارتعشت أناملها مترددة وبدت أنها تمكر مكرالتتحاشى أمرا آخر غير الذى سمعته من والدها الذى كان أشد مكرا فأردف :

- شعب لايهاب الموت من طول ما تعرض له فتكونت لديه مناعة صلدة ضده خلال ستون عاما إنصرمت على الإنصهار فى المحرقة التى أتى بها عدوه المحتل معه من حوارى أوربا ثأرا لنفسه ممن أحرقوه بإحراق شعب آخر وضحية أخرى .. ! وبرضى وتشجيع ممن أحرقوه طبعا أو تكفيرا عن ذنبهم لأنهم بالضرورة لا يملكون إلا السكوت عن الجريمة الجديدة التى كانت عين الجريمة القديمة التى سبق لهم إرتكابها فى حق المجرم الجديد ! والمثل يقول : فاقد الشىء لايعطيه و وتوقف ليرى الجزء الرابع

أثر كلامه على طفلته التى بدت مقتنعة تماما بكل كلمة فاه بها.. وأكثر من ذلك فعل فى نفسها فعل السحر فقد عرف طريقه لكشف لغز تلك النفس وبدأ يزعزع ما قر فى أعماقها من جذور الأحزان لما حدث ويحدث - يوميا - للبشر العاديين وللأطفال بصفة خاصة من إبادة جماعية فى هذه البقعة المقدسة من الأرض « وطن كل الأنبيا ء الذين سبقوا خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام « .. ولصمت العالم « وبينهم الأشقاء فى الآونة الأخيرة « عما يجرى وكأنهم – على حد قول الأب – يكفرون عن ذنب إرتكبه غيرهم ويسددون دينا على غيرهم من رصيدهم فى بنك الحياة الذى لاينضب بل يتزايد كلما تعرض لمحاولات السطو والمحق !

والذى أدرك بنظره الثاقب انه ضعضع عزيمة إبنته فقرر أن يضرب - ككل الأذكياء- على الحديد وهو ساخن ودمدم بلهجة رصينة مؤثرة مستطردا :
- أنت يا إبنتى الحبيبة تهينين هذا الشعب العريق وتشهرين به من حيث لاتشعرين عندما تزعمين دون قصد وبنية حسنة أن الطفل اللقيط ينتسب إليه !.. نعم حزنك على الأم وأطفالها الأربعة وغيرهم قبلهم أمهات وأطفال كثيرين هو ما يجعلك تتخيلين على الرغم منك وقوع أمور غير معقولة فكيف يتسنى لرضيع أن ينتقل من غزة إلى القاهرة ! هل طار فوق صاروخ قسام ! أم وقع من جيب أمه عند معبر رفح المغلق فوقع على الناحية الأخرى فى صندوق سيارة «ربع نقل تتبع مرور القاهرة» وسافر به السائق حتى بلغ الشارع الذى تقع به مدرستك فألقى به دون أن يفطن له كالزبالة ! .. أفيقى مما أنت فيه من أوهام وغفلة يا حبيبتى من أجلنا جميعا ! ومن أجل الطفل الذى تعقدين مشكلته بإ دعاءاتك التى لايصدقها عقل .. بينا حلها سهل فى قسم الشرطة !
كان آذان صلاة العصر يوشك أن يرتفع ولم يتريث الأب ليسمع رأى إبنته فيما قال لثقته فى أنه أصاب منها هدفه وخرج لايلوى على شىء معلنا وهو يخطو أنه سيصلى فى الجامع المجاور ثم سيبتاع إبان عودته بعض إحتياجات الرضيع من»اللبن الجاف والكوافيل والحفاضات وأدوات الإرضاع ودواء شهير لتسكين ما قد يعتمل فى بطنه من مغص يعرف بخبرته أنه يواكب دائما الأسابيع الأولى من حياة الأطفال .. وساورت رضوى مشاعر توزعت بين الأمل والغبطة فهاهو والدها فيما يبدو وقد تراجع بعض الشىء عن موقفه يظهر إهتماما وعطفا على الصغير المسكين بيد أنه خيب رجاءها وهى تتسمع بإهتمام بالغ إلى آخر كلماته حيث قال :
- وسيتعين علينا بعد العصر أن نذهب به لقسم الشرطة .. للإبلاغ عن واقعة عثورنا عليه وهى التى لها ان تتصرف !
فتعالى نحيبها مرة أخرى مخيبة الآمال بدورها بعد أن توهم الجميع أنها

برأت مما أصابها وإندفعت تتوارى فى غرفتها عن الأعين وفى عين اللحظة وكأنه توافق متفق عليه إرتفع صراخ الطفل فإستدارت إليه قبيل إختفائها وإختطفته من موضعه علىالأريكة وهى تضمه إلى صدرها وتهدهده تارة وتضع وجهه كله على جانب خدها فى وجد وتحنان وتقبله تارة أخرى .. لا لم يكن - كألدمية تلهو بها – فإنها كانت تحمل له فى حناياها ما هو أكبر من اللهو واللعب ونفث نوازع غريزية لم تزل بعد فى طور البادرة ! .. لقد كانت - كما أسلفنا – عواطف أمومة كاملة والغريب ان الصغير كان يبادلها شعورها فقد كف عن النحيب بمجرد أن إشتمها وأحس بأناملها تمسكه بحرص وتضعه فوق قلبها ليتبادل حديثا هامسا مع دقاته يعبر به عن كامل سعادته بها وحبه لها مناجاة أو بمعنى أصح مناغاة يعرف مدى جمالها وعذوبتها من جرب أن يكون أما أو أبا !

الجزء الخامس

وسارت الأمور بعد صلاة العصر فى الطريق الذى رسمه الأب بعد أن آب للمنزل وسلم آله ما ابتاعه من إ حتياجات الرضيع وانتظر ثمه حتى انتهت - فى جو من السعادة والمرح - مراسم رعايته وتوجيبه ثم خرج به وبإبنته قاصدا قسم الشرطة ومع قربه من المسكن فإنه آثر أن يستقلوا سيارة « أجره « ليتجنبوا نظرات الجيران وفضول المارة من أهل الشارع الذين يعرفونه جيدا .

وهناك فى القسم قدم البلاغ على الوجه الذى أملاه عليه الضابط « النوبتجى « وشرح فيه بكل دقة كيف وأين ومتى عثرت الفتاة على الرضيع .. وفى النهاية طلب إليه مراجعة ماتوصلت إليه النيابة العامة من قرار

بعد إستطلاع رأى الشئون الإجتماعية ومؤسسة رعاية الأيتام بعد ظهر اليوم التالى وكان هذا يعنى عودتهما بالطفل ثانية للبيت وفرحت البنت - أيما فرح – وأعلنت ذلك بطريقة إبتسم لها الضابط بإستغراب وخشى

والدها أن تفوه بكلمة من أوهامها تثير ريبته فعاجله موضحا بقوله :

- إنها مغرمة بالأطفال الرضع بصورةغريبة وتضع نفسها وأسرتها فى مواقف لاتحسد عليها كا ترى سعادتك !

فهز الضابط رأسه متفهما .. وإنصرفا بالطفل .

وكان الصباح التالى غاية فى التأزم وسقوط الأمور غير المقبولة فى الأيدى العاجزة فقد أمر الوالد إبنته بالتوجه للمدرسة تاركة له « وحده « تصريف المستجدات التى تراها جهات الإختصاص مناسبة للوليد وكيف

أنه من الآن فصاعدا لن يلبى لها أية رغبة - مهما كانت هينة - إن ركبت رأسها ! والغريب أن تهديده لم يزدها - كما تخوف - إلا تمسكا متعللة بأن تغيب يوم واحد عن الدراسة لن يضيرها ويمكنها بمراجعة مع زميلاتها تعويضه والأغرب أن يتنازل – وهذا خطأ فادح - لفتت الأم نظره إليه متذرعا

لها بأن وجودها مع الوليد سيهدىء من روعه ثم أنه فى حد ذاته من الأهمية بمكان لأنها التى عثرت عليه .

وبعد صلاة الظهر ذهبا بالوليد لقسم الشرطة يستعلمان فوجدا السلطلة المعنية قد توصلت إلى قراربتواريخ تنفيذية محددة بأن يتم تسليمه لأم بالأجر ترعاه إلى أن يبلغ العام ومن ثم يدفع به إلى أحد ملاجىء الأيتام التى لا تقبل الأطفال الذين تقل سنهم عن سنة !

ومرة ثانية تفرح رضوى فرحة عارمة تستدعى بسمة أكبر منها علامة الإستفهام التى ملأت وجه الضابط من غرابة أطوار تلك الفتاة الصغيرة التى إعتقدت أنهم سيتركونه لها عاما بأكمله .. واشتد بأبيها الخوف من أن يصدر عنها مالا تسعفه حيلته هذه المرة لتبرير ولعها بهذا الصغير بالذات !ونظر إليها كأنما يستعطفها وفى ذات الوقت اشفق على نفسه من أن يتدنى حاله معها إلى هذه الدرجة فأدخله هذا فى حالة شبيهة

بحالة إنعدام الوزن وألفى نفسه – بلا إرادة – يستشعر وكأنه طائر بجناحين يساير محبوبته الصغيرة محلقا فى أجواء لم يعتد علوها الشاهق من قبل ولاحتى فى قابل أيامه عندما كان مراهقا مشبوب العاطفة واسع الخيال .. أجواء صافية وضاءة لم ير مثيلا لنقائها ونورها .. كأنهما يرفان معا فى سماء ليلة معجزة مثل ليلة القدر او فى إحدى سموات الجنة السبع الأقرب إلى « عليين « التى يطير فيها أبرار بين قمم أشجارباسقة لكلمات طيبة لم يقدرعلى قولها من أهل الأرض إلا القلة النادرة ولم يرتقيها لأعلى إلا كل ذى نفس مطمئنة وهم ليسوا من الكثرة التى تناسب ثبات أصول الشجرة فى الأرض ! .. أبرار بوجوه إنسانية ملائكية وبأجساد وأجنحة طيورالجنة الفيروزية النورانية أتوا من بلاد وأراضين عدة غير أن الذين جاءوا منهم من أرض الأنبياء أكثر لأن هناك «ضحية» عالم ظالم تبحث لنفسها بالمذابح والمحارق عن أرض وطن! معها

حق والله محبوبته فى ولعها بهذا الرضيع بالذات .. معها حق !

- معها حق !
- أفندم !
تساءل الضابط فإنتبه ألأب من حلمه - الذى إستحوز عليه وهو يقظ يقف على قدميه - بسرعة فائقة ..وأرخى النظر عن إبنته التى فوجئت بعدد من السيدات الجالسات فى غرفة الضابط تتهافتن عليها كل واحدة
تبغى خطف الطفل منها بمجرد أن وقعت أبصارهن عليه بين ذراعيها وتنافسن فى ذلك لدرجة هددت سلامتة وأمنها .. فأسرع الضابط بإبعادهن على حين صاحت الفتاة فيهن مكشرة عن أنياب لم يسبق لوالدها أن رآها قبلا :
- على جثتى لو أخذه أحد منى ! انا التى وجدته وأنا الأحق به ! لايظنن أحد أنه لقيط أو رزق حدفه الله عليه .. إن له إسم ووطن وأهل جبابرة لاقبل لأحد بملاقاتهم ! وهو لى .. لى .. أنا التى أعرف قيمته !
وعلا صراخ الطفل لما سمع صياحها وكأنه يعلن للقاصى والدانى تضامنه معها ولم يهدأ إلابعد أن إنتحت به جانبا حالسة على « دكة « خشبية منزوية فى أحد الأركان وإلتقطت من حقيبة يد صغيرة كانت تحملها

طول الوقت « بزازة رضاعة « وألقمتها فى فيه فسكن تماما ومضى فى شفط محلول اللبن بنهم مصدرا صوتا شبه منتظم من توالى إلتحام وإنفراج شفتيه بين الفينة والفينة بجلد « البزازة « المصنوع من مادة بلاستيكية شفافة ومرنة فيما يشبه « المزمزة « ! وأنظار الحضور جميعا بما فيهم النسوة اللائى أتين ينشدنه لسبب لا تعلمه حتى ذاك الحين فهى لاتدرى .. من إستدعاهن ؟ وكيف بلغهن خبره ؟ ومن أين أتين ؟
ولماذا هذا التكالب على إقتنائه ؟ ,
كانت رقة الحال تبدو عليهن من ثيابهن ومن طريقتهن فى الحديث والتعبيرات والألفاظ التى تتبادلنها وكأنهن فى سوق شعبى للخضار أو على

شفا معركة تستخدم فيها بإفراط قاذفات الشتائم ! ثم على حين غرة وقع ما لم تحلم رضوى بحدوثه ...

الجزء السادس

عندما حضرت السيدة « مآثر « مفتشة الشئون الإجتماعية فسرت بينهن همهمات وهمسات وشهقات ونظرات وعبرات غير مفهومة وكأنهن رأين عدوا لدودا قويا لاقبل لهن بمواجهته وخصوصا حال تدافعت أنظارها نحوهن والشرر يتطاير من عينيها مزمجرة بصوت عال مخاطبة إياهن وكأنها تصرخ فيهن :

- أنتن هنا ؟ .. مرة أخرى .. ؟ ألم أنبه عليكن ألا أرى وجوهكن فى أى مكان أذهب إليه ؟! .. هيا من هنا .. هيا يادلالات الأطفال وإلا كتبت فيكن بلاغا للنيابة يفضى بكن للسجن !

وميزت رضوى وهى ترنو بعينين تلتمعان إكبارا وغبطة إلى المفتشة التى تمارس واجبات وظيفتها بعض عبارات مثل « لا .. وعلى إيه الطيب أحسن ! « و « إحنا كنا فين والست دى فين ؟! « و « ربنا على القوى والمفترى ! « ومثل « يا للا يا بنات ال ... ! « وهن تتدافسن أيهن تسبق الأخرى إلى باب الإنصراف تتخبط مؤخراتهن فى بعضهن مما كان له بالغ الأثر فى نفس رضوى وجميع الحاضرين الذين شاهدوا

المنظر الفكه فتعالت القهقهات من كل جانب واستنار محيا الصغيرة ببداية فرحة وهى ترى الساحة وقد خلت إلا منها وأيضا لأن الوليد كان يثبت عينيه على هذا المحيا الطاهر الجميل لاتبرحانه ! واستبشرت خيرا

بذلك وبالسيدة التى حضرت لتضع النقاط على الحروف وإن كان قد أخذها الدهش والإنبهار لحظة ظهورها بعض الشىء ولاحظ والدها والحضور جميعا فيما بعد أن ثمة شعور بالود متبادل بينهما وبالذات حين شهقت السشيدة لدى مرآها وهى مكبة على الطفل تكاد أن تحتضنه وهى ترضعه وبصوت منغم يعبر عما يجيش فى صدرها من عجب للمفاجأة واتجهت نحوها بعد ان حيت الضابط بقولها :

- السلام عليكم ياحضرة الضابط .. السلام عليكم جميعا !
ولم تنتظر رد التحية إذ غلبها فضولها فأنشأت تخاطب رضوى :
- رضوى .. أأنت الفتاة التى عثرت على الطفل .. آخر ما كنت أتوقعه ! أنت التى تطالبين بحضانته ؟ ولكنك قاصر يا حبيبتى !
وإنبرت عليها تقبلها ثم أمسكت بالطفل من جانبيه ورفعته لأعلى لتطالعه وتفحصه جيدا وكأن الوليد لم يعجبه تلك الحركة منها ولا نظراتها النافذة التى تخترق بها وجوده فتعالى صراخه بطريقة ملأت ربوع المكان إزعاجا فأعادته إليها بتأفف ولم تبدى أى عطف عليه فإنها إنما كانت تؤدى عملها فحسب ! وغمغمت موجهة حديثها إلى الأب وهى تجلس قبالته على المقعد الثانى الفارغ أمام مكتب الضابط وبلهجة إتخذت
بغتة غنة الوقار والإحترام :
- بابا رضوى ؟ .. انا أم زميلتها بالمدرسة .. نحن نقطن فى الشارع الخلفى لفيلتكم .. ألا تعرفنى ؟ !
أجابها معبرا عن سعادته بحضورها وبأنه سمع عنها من إبنته وزاد على ذلك بأنه يتوقع منها المعاونة للخروج بسلام من « الورطة « التى شغلتهم رضوى بها فأكدت له أنها ستبذل مافى وسعها وهى تهون الأمر قائلة :
- ولا ورطة ولاشىء !
وعلى الفور جرى حديث مطول بينها وبين الضابط فإكتفى بالإنصات إليهما باهتمام دون أن يتدخل فى الحديث متاملا منظر إبنته وقد إشرأبت برأسها للأمام وأدارت جانب رأسها قليلا واهتمامها موزع بين تشنيف
أذنيها حتى لاتفوتها كلمة واحدة مما يقال وبين النظر للطفل الذى ملك عليها شعورها ولم يترك أية فرجة إنتباه لأى إنسان آخر من الموجودين ولاحتى والدها فيما بدا له الأمر الذى أشتد له قلقه فقد كان يتوقع إنتزاع الطفل منها وإيداعه دار الرعاية الإجتماعية تمهيدا لتسليمه للأم التى « ستستولى « عليه لمدة عام !

وجاءت اللحظة الحاسمة التى أتم فيها الضابط محضره وقصدت السيدة «مآثر» الفتاة تبغى تسلم الوليد منها فأبت وتوسلت إليها بحق زمالتها وصداقتها لإبنتها وحبها له و» يقينها بأنه ليس يتيما ولا لقيطا «! وقبل أن يزل لسانها بكلمة تغضب أباها عن حقيقة ما تتوهمه من أصله سكتت هنيهة إبتلعت فيها ريقها متبادلة معه نظرة تهدئة لخوا طره ! ثم واصلت إستعطافها للمفتشة أن تتركه لها فهى ستعرف كيف تعنى به ودون أجر أو تكلفة من أى نوع على «الدار» فضلا عن أنه معها لن يعانى كاليتامى الآخرين مرارةالحرمان وإفتقاد الأم فترددت « أم صديقتها « وبانت عليها علائم الحيرة ووجهت نظراتها للأب تستنجد به على إبنته ليتولى عنها أمر إستخلاص الطفل وتسليمه لها بنفسه .. وبدوره أدرك الوالد دقة الموقف فهم إلى إبنته يحايلها بكافة الوسائل لتخطو تلك الخطوة ولم يقنعها غير قوله بأنه يعدها بالعمل على إستعادته لأن النظام يتطلب تقدم شخص راشد لحضانته وسيحادث « ماما « فى هذا الشأن ويقنعها أما الآن فإن الإجراءات تستلزم تسليمه للدار كما ترى ولاتخشى عليه فهى دار الرعاية لا الدار الآخرة !

واستسلمت الفتاة المغلوبة على أمرها وبدأت تتخلى عنه والدموع تنهمر من مآقيها - مرة اخرى – صامتة .. مصبورة كأنهم ينزعون قطعة من فؤادها او كبدها ! وما إستقر بين أذرع المفتشة حتى ملأ جو المكان ثانية بسرسعة صراخه التى كان لها وقعا يمزق نياط القلب فلم تتحمل الفتاة ووثبت تروم إستعادته فما كان من والدها إلا أن وثب بدوره وأمسك بها قبل أن تحط وثبتها على المفتشة وانتزعها مبعدنها من المكان ولم

يجد بدا من تهديدها « بأنها إن لم تهدأ وتسير معه إلى البيت فى صمت كالقطة الأليفة التى تحب أصحابها فسيغضب منها ويخاصمها للأبد ! « وكان فى يديه وصوته حسما وحزما اشعرها بالخوف من أن يستعمل حيالها سلطة الأب وتتغير معاملته لها فتفقد مكانتها لديه - وبالتالى لدى

باقى أفراد الأسرة الذين كانوايمشون على هداه - وهو على كل حال مايزال إلى تلك اللحظة أبا محبا وعطوفا وعليها ولو تلك المرة أن تنصف نفسها وتبرهن للجميع انها فتاة عاقلة وجديرة بحبهم !

وعاشت الأسرة الأيام التالية تعانى محنة لم يعرف لها أحد مخرجا فإن رضوى إلتزمت غرفتها لاتبرحها ولا تتكلم أو تأكل أو تشرب أو تذهب للمدرسة وزارتها زميلاتها وعلى رأسهن إبنة السيدة « مآثر» وبذل الجميع جهودا مضنية لإقناعها بالخروج من عزلتها فإن هذا مسلك لايليق بفتاة مهذبة مثلها وسيضربها فى صحتها قبل مصلحتها الدراسية التى ستنتهى بها حتما إلى الرفت لتجاوزها مدة الغياب المسموح بها دون تقديم العذر الرسمى المقبول والذى يتمثل فى شهادة طبية تثبت مرضها من جهة مسئولة .. وفطن والدها إلى هذا فأخذ إحتياطاته للحصول على الشهادة فإن إبنته بهذه الحال التى إكتنفتها مريضة فعلا وتستحق العلاج واعتبارها بأجازة مرضية حتى تبرأ .. وبوسيلة ما أقنع طبيب الصحة المدرسية بالحضور للمنزل وإجراء الكشف به ولو أن هذا الإجراء غير مطروق إلا نادرا .. وإذا كان قد ضمن بهذا عدم رفتها من القيد

بالمدرسة بيد أنه كان والأسرة كلها فى قلق شديد لأن هناك خسارة مؤكدة من عدم تلقيها علومها الدراسية وفقدانها درجات أعمال السنة والإختبارات الشهرية التى تدخل فى المكون العام لدرجات النجاح فى إمتحان نصف العام أو آخره .. فاذا عليهم أن يفعلوا لتدارك الأمر ؟ أيقفون لها رغبتها فى إقتناء الطفل أم يواصلون رفضهم مع ما فى هذا الرفض من مخاطر وشيكة الوقوع ....

الجزء السابع (الأخير)

وقد بدات بعض بوادرها تظهر على حالتها الصحية فقد هزلت وبدأت تفقد وعيها أوقاتا طويلة من شده ضعفها وحزنها مما ينذر بفقدان حياتها وهذه أكبر جريرة - بل أكبرنقمة - ممكن ان تصيب أبا أو أما أن يفجعا فى إبنتهما الأثيره إلى قلبيهما وقد كان بأيديهما إنقاذها .. فماذا عليهما أن يفعلا ؟ ..إن الأمر لم يعد يحتمل إنتظارا ...

وقد جاءت والدة زميلتها مفتشه الشئون الإجتماعيه لزيارتها لما علمت بتدهور حالتها واستقبلتها أمها وأبوها ببالغ الترحاب وقد إنتعشت البنت قليلا مع ضعفها وعدم قدرتها على مغادرة الفراش فقد أتعش ذلك آمالها فى إستعاده الطفل .. وتوهج هذا الأمل أكثر لما رأت الأب والأم يتبادلان خلسه حديثا هامسا بعد أن أسرت الضيفة فى آذانهما خبرا خمنت أنه - على الأرجح - يتعلق بالطفل - وقد كان يخصه فعلا لكنها لو ألمت به لتضاعفت مواجعها لأنه منذ فارقها ممتنع عن الرضاعة ويواصل الصراخ ليلا ونهارا إلى أن يفقد الوعى وقد أعادته الأم البديلة للدار مخافة أن ينفق منها وتحمل ذنبه ! والغريب إمتناع أى من النسوة اللائى كن يتنافسن عليه للحلول محلها فقد إنتشر خبره .. وإذن .. إذن تسلل إلى نفس الفتاة بصيص نوريبدد بعضا من ظلام اليأس والقنوط وبالذات حين إستدعيا السيدة (مآثر) الى مشاركتهما الحديث وغاب ثلاثتهم فمحادثه طويلة بصوت منخفض ويبدو أنهم توصلوا الى قرار هام مفاجىء .. إذ وقف الأب على مسافة من باب الغرفة ووالدتها الى جانبه بينما تقدمت منتهى أملها إليها قائلة بنبرة خفيضة كلها رقه وعطف وشفقه :

- ليكن يارضوى .. وافقت والدتك مشكورة على إستلام الولد وحضانته !

فدبت فى قلبها فرحة وسعادة أعادت لون الورد إلىوجنتيها وجعلتها تهب من نومها واقفة على فى حركة غير محسوبة ولاطاقة لها عليها وما هى إلا

أن خذلتها ساقيها بعد بضع ثوان إنهارت على اثرها محطمة على الفراش وكأنها كومة عظام بلا لحم ولا أوردة أو جلد يشى بكل ما يحتويه من معطيات الحياة .. وهرعت الأم إليها وفى إثرها الأب واحتضناها بشدة وحنان وأقاما عودها واحدا من الخلف والأخرى من الأمام ليمنعانها من الإنهيار النهائى على حين كانت كرباء الفرح تنتفض فى خلاياها وتستدعى كل ما فى هذه الخلايا من دماء وتحيل لونها الأبيض الشاحب الذى كان أقرب إلى لون الملاءة التى تتغطى بها لتدارى مظاهر إنهيارها الصحى إلى لون أحمر خفيف واسترعى التغير الجسدى الذى دبت به روح جديدة أنظار أمها وأباها والضيفة فاستنارت الوجوه وابتهجت النفوس وسألت الفتاة وهى تنهنه ولاتكاد تملك أعصابها من فرط بهجتها وسرورها بكلمة واحدة مقتضبة :

- متى .. ؟

أجابت أم صديقتها وكأنها تنتحل كدبة :

- غد .. غدا !

تمتمت فى وناء ورجاء :

- غدغدا .. ؟! ولماذا لايكون اليوم .. ؟

أجابتها وهى تستعد للإنصراف :

- سأبذل ما فى وسعى ..

وحيت الأب والأم ودلفت صوب باب الخروج وكان لوقع كعب حذائها وهى تنقر أرضية الصالة الخارجية فى أذنى رضوى صوت الموسيقى .. آه .. لشد ما تحبها وتقر لها بالعرفان بالجميل .. إنها أجمل وأرق مفتش شئون إجتماعية فى مصر وإنها لن تنسى فضلها عليها ما عاشت !

- أمى .. أمى الحبيبة الفاتنة .. الطعام .. ! طعام كثير ! أريد طعاما كثيرا .. فته ..وشوربة خضار .. وأرز مفلفل .. ودجاج بلدى !

وترامى إلى سمعها صوت تلفاز الجيران وتلك المغنية الفرنسية المصرية المولد

الشبراوية النشأة تصدح لحنا محببا إلى نفسها مغنية:
- غنوه حلوه وكلمتين .. حلوه يا بلدى !
فرددت معها اللحن وهى تتراقص بخفة من ضعف فوق السرير وإستخفها المرح والجذل وبدت أنها تذكرت بغتة أمرا هاما فهتفت :
- الأخبار .. تقارير المراسلين ! إفتحوا التليفزيون ! .. أخبار القنوات الفضائية .. من فضلكم .. إفتحوا التليفزيون ! .. أخبار فلسطين ! أخبار قذف الطائرات والدبابات للبيوت واستشهاد الأطفال والنساء والشيوخ !
أيها العالم الظالم أتساءل .. من يضرب من ؟ .. من يدافع عن نفسه .. المسلح بكل ما عرفه البشر من صنوف الأسلحة فى الأرض والبحر والجو .. المحظور منها قبل المسموح ! والشعب الذى كله جيش .. أم المدنيين العزل والشعب الذى بلا جيش وكل أسلحته بسبب الحصار الذى يضربه العدو والعالم كله .. صنعت فى الورش البدائية للحدادين ذوى الكور!! ولا أكثر من الطوب والحجارة والنعال ! والزجاجات الفارغة والمقاليع والنبال ! من يضرب من ؟ .. من المهاجم المعتدى .. ومن المدافع الأعزل .. من .. من .. من .. ؟
وراحت تكرر الكلمة بإنفعال عارم حتى نال منها التعب كل منال وهوت إلى حيث لاتشعر ولا تدرى ثانية دون أن تأكل ثريدا ولا أرزا .وذكرى نقر الكعب العالى لحذاء المفتشه تنقر هذه المرة رأسها تلك التى زهبت ولم تات بالرضيع البائس لافى نفس اليوم ولا فى اليوم التالىولا حتى بعد أسبوع ودون أن تتصل لتقدم عذرا أو تبريرا.. الأمر الذى تدهورت له حالة البنت كثيرا وأوشكت أن تقضى نحبها لولا أن عناية الله تدخلت إذ أن الم شعرت بدوار ورغبة توالت فى القيىء فأخذها الأب للطبيب وكانت مفاجأة لامعقولة أن يعلن لهما الطبيب أنها حامل فى الأيام الأولى ! ولم يصدق الأب .. لم تصدق الأم وتبادل الأثنان نظرات الذهول والفضول فقد كانا لايفهمان ولايجدان تفسيرا لتلك العاطفة وهذا الحب الذى إندلع لهيبه بينهما فى الشهر الأخير منذ بدأت إبنتهما تطلبهما بطفل وكأنها كانت تحثهما أن يأتيا لها بأخ أو

أخت .. وكلما ساءت حالتها النفسية من جراء عدم تحقيق أمنيتها كلما بعثرالوالدان - بإفراط - هذا الحب بينهما فيما يشبه الدفاع عن حياة إبنتهما إعتقادا منهما أن الأرض الخصبة صارت جبوبا لاتنبت زرعا ولكن هاهو الطبيب يعلن أنها أنبتت فلم يصدقا سمعهما وحاوراه بأن ذلك من رابع المستحيلات لأن الطمث - علامة إستمرار الخصوبة – قد إنقطع تقريبا عن الأم فى العام الأخير وتقريبا وليس قطعا لأنه كانت هناك آثار بسيطة لاتذكر فهل يوجد فى علم الطب وصف لمثل هذه الحالة .. أجابهما الطبيب مبتسما :

- لايوجد فى علم الطب وصف إلا حيثما تحدثنا عن الحمل الكاذب ! وقد يكون هناك ثمة خطأ فى حساباتكما ولكن يوجد فى علم وقدرة ورحمة الخالق سبحانه ما هو أكبر من ذلك . .

نكس الأثنان رأسيهما علامة على الإيمان والتسليم وغمغما فى صوت واحد :

- ونعم بالله .. هو القادر على كل شىء .. حمدا لله .. هذا أجمل خبر سمعناه فى حياتنا ..

وشردا بتفكيرهما بعيدا وبانت عليها علائم الشرود فتساءل الطبيب :

- ماذا .. ؟

فأجاباه بصوت واحد أيضا :

- لا.. لاشىء .. لاتشغل بالك بنا .. إنما نفكر فى إبنة عزيزة علينا ستطير من الفرح عندما تسمع الخبر ! رحمة الله وسعت كل شىء .. والحب يصنع المعجزات فعلا !

وسكتا هنيهة ثم تبادلا نظرة تفاهم وابتسامة عاطفة إستطردا بعدها بالقول دفعة واحدة :

- معك حق قد يكون هناك ثمة خطأ فى حساباتنا ..

- أفندم ؟!

قالها الطبيب بلهجة متسائلة كأنه لم يسمع فأسرعا يجيبان وهما يخطوان

خارجا وقد تأبط أحدهما ذراع الآخر وفرحة وليدة تغمرهما بالحب وتعيد إليهما إحساس الشباب وذكريات الأيام الخالية الجميلة :

- لا.. لاشىء.. لاتشغل بالك ..

وضحكا سويا وأضافا :

- السلامو عليكو .. !

وفى البيت كانت تنتظرهما مفاجأة ثانية سعيدة إذ ألفيا السيدة « مآثر « فى إنتظارهما ورضوى جالسة بعيدا عن غرفة نومها وهى تهدهد على رجليها الوليد وتكاد أن تلتهمه بعينيها وشفتيها وتضعه على صدرها فى مكان القلب كأنها تروم أن تخبئه داخله ولاتبدوعليها علامات المرض فقد شفيت تماما .. وبمجرد أن وقع بصرها على والديها ألقت بالطفل فى أحضانها وهتفت فى جذل ومرح :

- تفضلى با ست ماما إبنك !

وتساءلت الأم وهى شاردة غائبة الذهن :

- إبنى ؟!

على حين قامت السيدة مآثروبيدها سجل وأوراق وطلبت إلى الأم أن توقع عليها فوقعت دون أن تقرأ والضيفة تعتذر عن الأسبوع الذى تأخرته وعزت ذلك لبطء الإجراءات بينما الأب يطالع فى سرور ماتوقع عليه

زوجته وشريكة حياته وبعد ان إنتهت أودعت المفتشة الأوراق والسجل حقيبة عملها بعناية وأناقة وسلمت على الجميع بحرارة ودلفت صوب باب الخروج وكان لوقع « بوز « حذائها وهى تنقر بأقدامها فى همة أرضية الصالة الخارجية وقع الموسيقى فى أذنى رضوى وبغتة تغير لونها وبان عليها أنها تذكرت شيئا هاما فأسرعت بالسيدة قائلة فى أعقابها قبل أن تختفى وهى ترفع عقيرتها بالصياح لتسمع :

- لاتنسى تحرير شهادة له ...

وسكتت برهة تنهدت إبانها ثم أضافت :

- إسمه .. يوسف .. خليل .. جامع !!
وعندما سألها والدها بعد عودتها إليهم :
- أية شهادة ؟
أجابنه بكل عزة وثقة وبساطة :
- شهادة حياة .....

أطال الله عمرك يا أمي

قال النهار لزميله الليل وهو يسلم له مفاتيح نور الدنيا :
- يامن جعلك الله لباسا لبنى آدم كن رفيقا بها .. انها سيدة نادرة الوجود واسمها من النادر ان يسميه احد فى هذا الزمان الذى لا يعلم به غير ربنا ..رغم انه احسان !
فاجابه الليل وهو يتسلم المفاتيح فى فرحة تضرجت لها خدود الشفق :
- وانت يامعاش كل الكائنات العاقلة وغير العاقلة ايضا ومن بينها بنى آدم طبعا ..دعنى احييك ! فانا اعلم قدرها منذ ولدت .. انها سيدة تعدت الثمانين ومازالت تعمل وتعطى ...
- ليست مجرد ابنة ..
- ليست مجرد زوجة ..
-ليست مجرد ام ..!
- منذ حداثة عمرها وهى تعمل .. فى بيت ابيها كانت خادمة والديها واشقائها وشقيقاتها .. كان يومها يبدأ بمجرد ان تنبلج يانهار فجرا ...
- نعم .. نعم كان هناك برنامج عمل وضعته لنفسها .. فان كان اليوم مخصص للغسيل وجدتها جالسة على «الطشت» تغسل وبجوارها « الوابور «والغلاية « فلم تكن وسائل الغسيل الحديثة قد اخترعت بعد او اخترعت لكنها كانت فى بيوت الصفوة من الناس ولم تنتشر بعد من اعلى لاسفل !
وان كان يوم « الخبز» فهى تعجن الدقيق فى «اللقان» ! وتوقد الفرن بحطب القطن او الاذره اوتحميه بأ قراص جافة ابتاعوها «كوقود» من بيت الفلاحين المجاور الذين كانوا يمتلكون حظيرة مواشى وكانوا يجففون روثها فى صورة هذه الاقراص التى تطورت فيما بعد فى عقول العلماء الى مايعرف «بالبيوجاز» ! ..
- كانت ابنة طيبة وكانت امها تصدرها للاعمال الصعبة ! اجل الصعبة ..هذا اقل وصف لها فحين يمرض احد افراد الاسرة كانت هى التى تتصدر لخدمته متعرضة للعدوى وكانها الوحيدة من دون الجميع التى حباها الله بالمناعة

وحصنها ضد جميع الامراض !
- ومن قال لك ان الله لم يحصنها سبحانه وهى الخادمة المطيعة لوالديها وكان اسمها احسانا !
- ذات يوم مرض شقيقها الاكبر بمرض « الدرن « ! وهذا المرض مع بساطة علاجه فى الزمن الحاضر كان عصيا على العلاج فى بدايات القرن الماضى حيث لم تكن مشتقات البنسلين والمضادات الحيوية المخلقة قد تطورت بعد وكان مشفى العلاج المركزى على مستوى الدولة يقع فى حلوان حيث عيون المياه الساخنة والعلاج الطبيعى و استأجروا بيتا فى الخلاء فلم يكن العمران قد تكثف بعد مع قلة الكثافة السكانية !..وسافر الابن وحيدا لان المرض العضال كان سريع الانتشار والعدوى كسبيل للعزل «يعنى».. لكن كان لابد من التضحية باحد افراد الاسرة لمرافقتة وخدمته و كانت الصغيرة القليلة الحظ التى تجاوزت العاشرة من عمرها بقليل لتغسل ادوات مائدته وتتلوث اناملها بلعابه و تغسل ثيابه وتملأ خياشيمها رائحة وبخار عرقه ولتغسل مناديله التى لا تنتهى من كثرة ما علق بها من الرشح والبصاق
وذات ليلة انتابته نوبة من نوبات المرض الشديدة والسكون جاثم والظلام فى الخارج حالك ونباح الكلاب يتعالى مع عزف اوبرالى لنقيق الضفادع ونعيب البوم وصلصلة الثعابين ذات الاجراس فى هدأة الليل البهيم وثمة افراد تتواثب هنا وهناك فى حركات حادة وخاطفة لذاك الطائر الذى يرى فى الظلام ولا يرى فى النور فاختنقت بالبكاء من فرط حيرتها وارتباكها وهى ترى شقيقها الاكبر يتألم من صدره و يوشك المرض ان يفتك به مسربا انفاسه حدثت نفسها قائلة: لابد من مجىء الطبيب فورا ولكن انى السبيل لذلك فى دجى الظلم والاظلام ..؟ ! ثم هناك الحيوانات المفترسة ..الضالة من البشر وغيرالبشر على حد سواء.. رباه .. ماذا أفعل ؟ .
لم تفكر طويلا ..فتحت الباب الخارجى.. اندفعت حارجة فى جسارة من يدفع عن نفسه خطرا لاوجود له الا فى خياله واعصابه وهبطت التل محدثة

جلبة كى ترهب من لا تراه من المخلوقات ان فكرت فى مهاجمتها ! وهى تكاد ان تنكفىء على وجهها وتتدحرج الى اسفل التل الذى كان البيت مشيدا فوقه ! رباه ..يذكرنى هذا بتلك الام التى حلفها زوجها مع وليدها فى واد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم داعيا اياه ان تهوى افئدة من الناس اليهم ! فهاهى تهبط التل مثلها نحو بصيص نور من فانوس «جاز» فوق احد الاعمدة الحشبية القديمة فى اول شارع قابلها ورأّها كلب فجرى وراءها وما كادت تلمحه حتى سقط قلبها بين ارجلها رعبا وفرقا واحتبس الصوت فى حلقها حين صرخت فخرج مبحوحا غير مسموع من برح الجزع ولدهشتها وقف الكلب على قيد خطوات منها يسرسع ويبصبص بذيله كأنما يعرفها .... وخمنت ان يكون الكلب يجاور البيت بصفة دائمة ليتلقف منها عظم الطيور والاسماك واللحوم التى كان شقيقها يتناول كميات كبيرة منها ليتغلب على مرضه وكذا بقايا الطعام الاخرى التى كانت تلقى بها من شرفة المطبخ .. جال فى ذهنها هذا الخاطر فتطامنت وواصلت تغز السير فى طريقها وكلبها الامين يتابعها ويذود عنها كل فضولى تسول له نفسه الاقتراب المجرد منها ! وقد ابهجتها تلك الصحبة الى درجة انها شعرت انها فى نزهة ليلية مع هذا الصاحب الوفى الى ان بلغت محل تواجد الطبيب فدقت على بابه ولم تعد الى اخيها الا وهو فى يدها !

رباه .. هذه كانت ليلة ليلاء لم يعمل لها الاهل حسابا وتركوا الصغيرة تواجه وحدها مالا قبل لسنها الصغيرة به .

- ومات الاخ الذي كانوا يعدونه لزعامة الاسرة بعد الاب.

- و لرحمة الله بعد ان اعادوه للبلدة من مشفاه البعيد وبعد فقدان الامل في شفائه ..!

- وعلى تلك الحال من الخدمة في بيت الاب والام تواصلت حياتها إلى ان تزوجت و انتقلت لبيت غريب اجنبي عنها..! فكانت نعم الخادمة لأمها الجديدة في بيت زوجها..و اعني امه وحماتها او خالتها كما كانت تدعوها.

- كان بيتا ريفيا كله عمل في الافران و»الكوانين!»و»الحظائر»على خلاف حياتها في بيت ابيها الموظف في محلج القطن القريب من البلدة.
- ويوم اعترض زوجها على دخولها» زريبة البهائم «لحلب اللبن من الجاموسة التى ولدت حديثا صفعه والده على خده اذ كيف يتدخل في نظام البيت الذي تديره امه تحت رعايته!
- لم يكن الزوج بحاجة للاقامة في بيت ابيه ولكن كان هذا نظام حياة الأسر الريفية في ذاك الزمن فمن يتزوج من الاولاد يأخذ مقعدا لحياته الجديدة مع عروسه في نفس البيت الذي ولد فيه لايغادره.
وذات يوم وكانت حاملا في الشهر التاسع لاول حمل لها قامت مع الفجر لتعجن العجين ريثما تنهض حماتها من نومها على راحتها لتجد اهم واصعب اعمال اليوم قد انجز قبل شروق الشمس. وكان الامر يتطلب ان تحمل «قفة» الدقيق من مكان تخزينها الى مكان عجنها قرب الفرن .. كانت القفة ثقيلة مما اضطرها لاسنادها على بطنها المنتفخة بالجنين الذي ناءت بحمله هو الاخر وكان من نتيجة ذلك ان»طق» لها عرق في بطنها بالقرب من «السرة» وهو الى اليوم خارج مكمنه ينفخ بطنها ويضغط على حجابها الحاجز ويزهق انفاسها.. ومع ذلك لم تشكو ولم تطلب استئصال ما يؤلمها وظلت تجاهد في بيت زوجها الذي شاءت ظروف عمله فيما بعد الانتقال الى مدينة اخرى فخف عنها حمل العمل بخدمة بيتها الصغير فقط لكنه عاد وتزايد ثانية وبالتدريج من كثرة الانجاب واصبح بيتها الصغير كبيرا ومع الوقت صارت اما كبيرة وتزوج اولادها وبناتها ولم يبق منهم معها في شقة زوجها الذي قضت معه معظم حياتها في الترحال من مدينة الى مدينة - حتى أحيل للمعاش ورحل بعد ذلك بسنوات وجيزة - سوى ابنها الاوسط الذي جرب حظه في الزواج كاخوته واخفق فعاد الى بيت امه يعيش معها لتخدمه!.. وهي على عهد الخدمة وعقده الابدي قائمة رغم ان سنها تجاوز الثمانين!
- كانت تطهو لابنائها وبناتها اصنافا بالطبع لم يتقنها احد مثلها اذ كان لها

هذا النفس الذي يصفون به الطعام الحلو ولم يكن ذلك لحذق الصنعة بقدر ما كان لروح الكرم والعطاء السخي دونما انتظار لرد..!

- كانت الاسرة كلها تتجمع في يوم الجمعة لينهلوا من اطايب طعامها الذي كان يتربع على عرشه»المحشي» بمختلف اصنافه وأنواعه من الكرنب والخس والباذنجان و الفلفل الى ورق العنب!

- رباه هذا الصنف الذي لاتقدر عليه بنات اليوم الا كلما جاء يوم من اجازة طويلة وكانت الصحة حاضرة والمزاج عال العال..!

- اشتهرت به حتى ان احد بنات اخواتها اسمتها خالتي طرزان ! لمثابرتها التي ما كانت تكل او تمل كل اسبوع عليه..!

- انها الان .. يا الهى .. ساهرة عليه تلف الاصابع وقد امتدت الآلام من بطنها الى جانبيها والى ظهرها حيث ارهق الانكباب الطويل منطقة ما بعد الظهر الى الكتفين وفقرات العنق!

- تكاد ان تجود بانفاسها من التعب لكنها لاتكف عن الجود بأناملها الرقيقة المرتعشة التي تلفها وتطعمها لاولادها.

- ثم ان الاعداد له لم يكن عملية سهلة.. بل ان شراء «الكرنبة» كان صعبا غاية الصعوبة هذا الخميس!

- وهي وحدها في البيت مع ابنها الذي يقضي حياته معها اما نائما الساعات الطوال او يقظا يدخن السجائر ولا شئ غير ذلك يفعله مسكين يبدو انه مريض بالوهم !

- خلينا مع حكاية الام العجوز التي لم تكن تطعمهم فقط وانماكانت تمد يدها لمن يحتاج منهم للمال.. المال القليل الذي يأتيها من معاش الاب.. والذي يكفيها ويكفي حاجة من يمد يده منهم لان الله يضاعفه لها بركة وخيرا..!

- لم يمر بائع الكرنب في هذا الخميس لا في الصباح ولا في الظهيرة ولا في العصارى هذا الذي كان زعيقه يملأ فراغ الشارع وهو ينادي» كرنب المحاشي!»

فتهرع الى البلكون وتدلي له «السبت المصنوع من الغاب والبوص!»وتبتاع منه كرنبة كبيرة!

- وكادت الام تبكي جذعا من ان تفشل في اعداد المحشو هذه الجمعة ودعت الله ان يأتي لها احد الابناء ليشتري لها كرنبة هذا الاسبوع..! لكن احدا لم يأت لانهم كالعادة في شغل عنها ولولا ام محمد بائعة الخضرتحت البلكون..هذه التي تجاهد لاعالة وتعليم ابنها وابنتها في الجامعة واعالة زوجها المريض في البيت.. لولاها لأخفقت هذه الجمعة في وضع اطباق المحشو على المائدة وهو امر لم يسبق حدوثه على مدى تاريخ حياتها..!

- انها وحدها الان ساهرة يا ليل فكن بها رفيقا ..!

- وماذا افعل لها !؟

- انها مريضة. ادع الله معي ان يشفيها من علة بطنها وان يطيل في عمرها فان اولادها في حاجة لها..!

- في حاجة اليها وقد اصبح ابناءها جدودا واصغرهم عمره خمسون !

- ولكنهم لا غنى لهم عنها فهي مفتاح صنبور الخير والامان لكل منهم..!

- اظنك ستقول واحفادها ايضا ..!

- اتقول فيها..؟

- ماذا..؟

- أحفادها في حاجة اليها؟!

- رباه هذه البادرات الممتلئة بالحيوية والفتاء في حاجة الى هذا الركام..!

- نعم في حاجة الى هذا الركام والى اطلاله وترابه ؟..في حاجة اليها لاقامة املود وبنيان حياتهم ! أليس الجديد ينبع من القديم تأكد انها حقيقة وليست قانونا يدرسونه في المدارس!.

- قد دخلت بنا في دهاليز الرمز واضابير التورية التي تشع المعنى دون تصريح.

- لا والله انا صريح ومستريح وارشدك الى الدرب الصحيح!

- ماذا..ماذا أيضا !..يا نهار اذهب ونم دون صوت انا اعلم انها ام الجميع.. سكن الجميع..وطن الجميع..!..ام بهذه الروح ومعها هذا النهر الفياض بالخير والحب من صدرها الذي يدق فيه قلب يقول تجمعوا يا اولادي كل يوم جمعة حول حلة المحشي ..!هي ام الدنيا..!..خاصة اذا كان مصب هذا النهر يقع في عينيها اللتين تفيضان حنانا وعطفا وغذاء للجميع تحت جبينها الوضاء العالي الذي سينتهى بهذا النهر يوما الي الجنة بمشيئة الله..!

انتهى حديث الليل وانكفأت الام بوجهها على المنضدة التي تجلس اليها في صالة شقتها تجهز»حلة المحشي» نامت والأصابع في يدها الى ظهيرة يوم الجمعة وحين دخل الاولاد والبنات عليها اباء وامهات واحفاد وحفيدات وكان معهم كلهم مفاتيح لباب الشقة انزعجوا وشهقوا وظنوها فارقتهم قبل ان تطهو لهم اخر حلة في حياتها بيد انها خيبت ظنهم عندما حركت رأسها ويديها وكانت الاصابع ما زالت ممسكة بالاصابع !امساك من يقبض على سر يتوافق وقول الرسول الكريم:

- خيركم من طال عمره وحسن عمله.

فتكالبوا جميعا على اصابعها ويديها ورأسها وكل مكان وصلوا اليه منها واوسعوها لثما وتقبيلا واختلطت اصوات «ماما»و»تيتة» وضاع صوتها بينهم وهى تتمتم بضعف ووناء:

- ربع ساعة يا اولاد ويكون المحشي جاهزا!

وحاولت ان تخلص نفسها من بين ايديهم لكي تتوجه الى المطبخ لكنهم لم يفلتوها لانهم اليوم شبعوا من محشو اخر يتسلل دون ان يشعر به احد الى الفؤاد والروح فيحشو البدن..! ولا يشبع منه المرء ابدا.. طعام لايقدر عليه احد غير امثال تلك الام ..ثم ها هم الاحفاد ينالون نصيبهم الوافر من هذا البر الذي قال فيه الرسول الكريم وهو يزف لها البشرى في الرؤيا وهي نائمة منذ قليل:

- البر يبارك العمر .

ولو نامت وعاودتها الرؤيا الجميلة ثانية وهو أمر نادر الحدوث لربما اضاف لها صلى الله عليه وسلم وهو ينظر اليهاوهى غارقة بين كومة اللحم التي انجبتها :

- بمشيئة الله الجنة تحت أقدامك ..ياأم السعداء بك فى الدنيا .

ولربما النهار والليل اللذين شهدا تدفق بحار البر والبركة منذ اربعة عشر قرنا ويزيد يقولان معا عند الغسق :

- ليس ذلك على البر .. الهادى .. ببعيد !

انظر بعينى !

قصة قصيرة في أجزاء

L3

- ١ -

سماها الفلاحون وأهالى المنطقة « شجرة الدكتور سرحان « وأطلقوا ذات الإسم على الجسر الخشبى الذى تقع على رأسه الشجرة وعلى الأرض الموصل إليها خاصته التى تجذب إليها العمال الزراعيين من مختلف القرى والعزب المتاخمة للطريق السريع الموازى للترعة الذى ينتهى بإحدى المدن الساحلية الهامة للعمل بحديقة الموالح الكبرى التى تترأس الأرض وتتناوب فيما حولها زراعات المحاصيل فى عروات ثلاث طوال العام .. وهكذا نالت الشجرة الحظوة وأصبحت علامة بارزة على الطريق .

لكنها كانت بالنسبة إليه أكثر من علامة فقد إعتاد أن يوقف سيارته تحت ظلها الوارف وينصب مجلسه الخاص المكون من منضدة صغيرة ومقعدين من هذا الصنف القابل للطى داخل الحقيبة الخلفية للسيارة .. وكان يجلس الساعات الطوال يدخن ويشرب الشاى المحفوظ ساخنا « بالترموس « ولم تكن به هواية يمارسها فى مجلسه المنعزل كالصيد مثلا أكثر من التحديق فى صفحة الماء الذى يجرى لمستقر له رقراقا لأداء رسالته الربانية فى رى الأرض وسقيا الخلق وربما هذا المعنى العلوى كان بمثابة المبرر الظاهر والوجيه الذى يشفع له تحديقه بعينيه حتى ليظن

الناظر إليه أنها تكاد أن تنخلع فى جلساته الطويلة كأنه ينتظر خروج أحد إليه من بطن الترعة !أو على موعد غير محدد الوقت مع مخلوق أيا كان جنسه .. ! يرمز إلى ذلك الكرسى الثانى الخالى على الدوام والذى لاحظ الفلاحون إبان العمل بالأراضى المحيطة أنه مع شغره طوال العام المنصرم فإنه كان شديد الحرص على وضعه بجانبه عندما يرتاد المكان فى بكرة الصباح بعيد بزوغ الشمس وحتى صعودها كبد السماء فى أول خطوة نحو خط الزوال .. عندئذ كان هجير الظهيرة يلفحه ويقسره على القيام من جلسته فيجمع حاجياته وأوراقه التى ما كان أحيانا يلجأ إليها ليريح عينيه بين كل تحديق وآخر فيقرأ

أو يكتب والتى لم يلحظها أحد المدققين بالنظر إليه - فى جملة ما لاحظوا- ولما لم يجدوا مبررا أرضيا يلمسونه ظنوا به الظنون فلم يجرؤ أى منهم على الإقتراب منه والجلوس إليه لمسامرته أو لسؤاله على الأقل ماذا يفعل هنا ! إلا هو !

شاب فى أوائل العشريتيات من عمره .. يتسلى بمتابعة العمل بأرض والده فى العطلة الصيفية.. لفت نظره ووعد الجميع أن يأتيهم بخبره حاسما ولذلك لم يكن يقدم رجلا ويؤخر أخرى وهو يسير واثقا على مهل ويدنو منه .. كان فتلك الآونة يقرأ وفوجىء بصوت دمث واثق يبادره ملقيا تحية الإسلام وانتظر برهة ريثما يستبدل نظارة القراءة بنظارة الرؤية واستنتج الشاب من ذلك .. أن القراءة وتدوين الخواطرهى جل إهتمام الرجل وليس التطلع إلى وجه ترعتهم الصبوح .. وحدجه الرجل بنظرة فاحصة هنيهة ثم ما لبث أن رد تحيته بلطف وترحاب وهو يدعوه بحمية للجلوس قائلا :

- تفضل .. أهلا بك .. شاركنى جلستى .. قد إفتقدت الرفقة زمنا طويلا .. أى والله ..!

فجلس دون أن ينبس وهو يفكر كالآخرين بالحقول الذين كانوا يتبابعون بفضول ما يجرى تحت الشجرة .. أنها أول مرة بالقطع يتشرف المقعد اليتيم بجلوس أحد عليه .. ومضى وقت شعر إبانه بالحرج وبأن عليه أن يقول شيئا يبرر به جلوسه إليه وظهوره على حين غرة ! فهمهم قائلا :

- بدات حرارة الشمس تشتد .. أعتقد أنك ستغادر بعد قليل ..

- هى أيام أقضيها !

إرتبك الشاب من قوله فأسرع موضحا بحرارة :

- لم أقصد ..

حدجه الرجل بنظرة متأملة ثاقبة دون أن ينطق بكلمة فإزداد إضطرابه ووجد نفسه يسأل :

-كيف ؟

- ٢ -

ندت الكلمة عن الشاب كرد فعل إنفعالى لما باح به من ذات نفسه رفيق جلسته المتقدم فى السن وبنبرة تحمل أنة الشجن والحزن .. والغريب أن يعمد هذا إلى الغموض ويلتحف بالصمت ويروح يثقب صفحة الماء الشفافة بأنظاره وكأنه يروم النفاذ إلى أعماقها للبحث عن إجابة شافية للسؤال !

وتململ الشاب فى جلسته نافذ الصبر وأوشك أن يعيد السؤال الصعب على مسامع صاحب الجلسة لولا أنه فى ذات اللحظة تدخل عامل ثالث ليحول دون ذلك بسقوط طائر صغير .. غريب الشكل .. زاهى الألوان على المنضدة بينهما وانتبه الإثنان إليه وشهقا فى صوت واحد شهقة المفاجأة المشوبة بالجزع .. وارتسم فى أعينهما سؤال ثان أشد إلحاحا يصرخ « من أنت ؟! « بعثه من ركوده بأعماقهما فيما يبدو الطائر الدخيل !

والحقيقة ان سقوطه المباغت لم يكن من الأمور العادية المتوقعة .. فمثل هذه الطيور تنتمى لأسراب ولاتقع هكذا كأوراق الأشجار الجافة فى الخريف أو الشتاء بفعل تقادم العمر وتغلب عمليات الهدم على عمليات البناء منهية رسالة الأحياء .. ونظرة يسيرة من أى منهما للحيوان الصغير تفيد بأنه فى مقتبل العمر وربيعه الحقيقى لا المجازى ! .. فلم يحن بعد أوان سقوطه .. وساقهما تفكيرهما المشترك على هذا النحو إلى سؤال بديهى وبسيط هو « ماذا إذن « .. أهو مريض ؟ .. وما نوع مرضه؟ أإنفلونزا الطيور التى قضت عوالمها على إقتصاديات صناعة الدواجن بدول العالم الثالث .. أم هو مصاب بمجرد جرح من « خردقة !؟ « .

تبادل الجليسان تلك الأفكار التى تواردت بسرعة وأعينهما حيرى بين تأمل الطائر وتأمل بعضيهما ! وكأنما أراد الشاب أن يضع نهاية لهذا الحدث الغريب الذى تزايدت غرابته من سلوك الطائر الذى جلس على مؤخرته مستريحا يتأملهما بدوره ! ولا يتحرك كأنه يتحداهما أن يجدا الإجابة المنشودة .. فمد

كلتا يديه إليه يبغى أن يمسك به وفى عين اللحظة وثب الطائر عاليا تجاه الترعة وواكبه صاحبنا - القليل الإحتراز - فى قفزته فى نفس الإتجاه فكان من نتيجة ذلك أن إختل توازنه ومادت الأرض المتماسكة تحت قدميه وهب رفيقه من جلسته وهو يهتف به :

- حاذر !

ولم تفلح محاولته اليائسة للإمساك به لأنه كان أسبق من يديه سرعة للسقوط فى المياه .. وغطس الشاب حتى إفتقدته عينا رفيقه وكاد أن يصرخ

- :

غريق .. غريق ! .. النجدة .. إلحقونا ياهوه !

بيد أن الغريق رفع رأسه من الماء ونظر إليه وهو يبتسم وقد تدلى من فرط البهر وتسارع الأحداث مخاط أخضر من إحدى طاقتى أنفه أعاق تنفسه فأسرع بإزالته ثم كرر عملية الغطس ثلاثا وكأنه طفل صغير يلهو ثم لوح بيده بما يشير إلى أنه بخير وسبح ليجتاز بضعة الأمتار التى كان قد جرفه بها التيار حتى صار قبالة صاحبه الذى لم يضع وقتا ونزل ليقابله على الحافة النجيلية المتماسكة بيديه وجذبه خارجا وهو يتسلق بظهره فى مرونة لاتتفق وتقدم سنه لكنه منطق الدفاع عن الحياة وما يصنعه من مفاجآت .. ووقف الشاب المنكود يرتعد وقد إبتلت ثيابه الصيفية الخفيفة والتصقت بجسده وفكر العجوز بسرعة فانبرى يعصرها له من الماء الذى يتقاطر منها ثم تحول إلى سيارته وأخرج منها « سجادة صلاة « وألقى بها على كتفيه ليحفظ حرارته وطفق يلفه بها بعناية ظهرا لصدر فرمقه هذا بنظرة إمتنان تأتى فى ترتيب النظرات فى الدرجة التالية للنظر إلى الأب وتبسم هذا فى أعماقه فرحا بالمنزلة التى تبوأها من نفس الشاب بتلك السرعة وماهى إلا لحظات حتى عادت الأمور إلى سابق عهدها فتجالسا وراحا يحتسيان من الشاى آخر ما تبقى « بالترموس « وبين الفينة والفينة يتبادلان النظر ويتضاحكان وكأن شيئا لم يحدث .. إلى أن غمغم الشاب قائلا وهو يفصح عن ذات نفسه

بنفس الطريقة التى باح بها جليسه منذ قليل :
- هو تكفير عن ذنب إقترفته !
- كيف ؟
تساءل الكهل متعمدا تقليد عين اللهجة السالفة للشاب فسادت بينهما لحظة صمت تكلمت فيها أعينهما بما بينهما من تفاهم وتوافق وتضاحكا مرة أخرى وأردف : -
غريب أن يحدث كل هذا ولا ينتبه أحد من الفلاحين بالحقول التى تحيطنا لما يجرى هنا !
وتمتم الشاب مازحا :
- هى أيام أقضيها !
فجاوبه صاحبه بعين اللهجة :
- هو تكفير عن ذنب إقترفته !
وعاودا الضحك من جديد وختم الشاب قهقهته بقوله :
- أنظر كيف ؟!
بحركة تعنى أن عليه أن يجيب على سؤاله الأول .. وتريث العجوز حتى سكن الجو بينهما تماما وأصبح المجال مفتوحا للكلام الجاد فقال بلهجة مركزة وحاسمة :
- قد أحالونى للمعاش منذ عام وأنا أشعر بأننى مازلت قادرا على العمل .
فعاود الشاب السؤال باستغراب حقيقى :
- كيف ؟

-٣-

وبادله الكهل النظر بفضول وكأنه تضايق من مجرد تكرار السؤال ثم هب من جلسته واستأذن فى الإنصراف وطفق يجمع حاجياته مما إضطر الشاب أن يقوم على مضض لمعاونته وبعد أن تم إدخال أثاث الجلسة حقيبة السيارة سأله مسرعا أثناء قيامه بركوبها وتشغيلها إستعدادا للمسير :

- إنك لم تجب سؤالى ؟ فأجابه لحظة إبتعاده بها مندفعا وبصوت حاسم :

- فى لقائنا غدا بإذن الله .

وفى الصباح التالى كان مجلسهما أكثر دفئا وودا .. وبادره الشاب مقترحا دعوته لجولة سريعة بأرضهم للتريض والترويح بالتغيير وتجديد منظر الترعة الأبدى فقبل وهو يمنى نفسه بتنسم - عن قرب - عبق أزهار حديقة الموالح التى يملأ عطرها الأرجاء فضلا عن تحقيق رغبة دفينة فى التقرب إلى العمال الفلاحين للتعارف وتبديد الصورة المبهمة القاسية التى إستقرت بل نقشت فى أذهانهم البسيطة عنه !

وكانت نزهة جميلة إستغرقت نحو الساعة تحققت فبها الفوائد التى توقعها فضلا عما تحقق له من إضافة بعض المعلومات الزراعية المفيدة ولو أنها جاءت على جناح الحنق والتعنيف الذى أهاله الشاب على عامل مكلف بدهان الجزوع الأصلية للأشجار لإرتفاع متر بمزيج من لبن الجير مع أحد أملاح النحاس لمكافحة الحشرات والقوارض وكان وجه الخلاف محددا فيما يقوم به العامل من الدهان بدءا من أسفل مما يتسب فى فقد بعض المزيج على الأرض عما لو كانت البداية من أعلى ! ولاحظ أن رفيقه الشاب تعمد هذا التوبيخ لأنه أنهى مقالته وهويضغط على مخارج الكلمات لتكون أشد جذبا لإنتباهه بقوله :

- أنظر بعينى يا أخ !

فدار بينهما الحوار الطريف التالى :

- أنظر بعينك ؟
- نعم ..
- وعينى ؟
- أتركهما فى بيتك عندما تجىء للعمل هنا ..
- ولكن والدك الشيخ لم يقل هذا ؟!
- وماشأنك به أنا الذى أشغلك لاهو ..
- أمرك يا باشا !

لفظها العامل بكمد وهو يصرف بأسنانه مما أضحك الشاب فلم يكن يقصد أن يصل تأنيبه له إلى هذا الحد وكان ضيفه يراقب مبهورا وألفى نفسه يشاركه الدعابة ووضع ذراعه على كتفه تودودا ومضى خارجا معه من الأرض وهو يستشعر أن لغة واحدة بدأت تنشط بينهما بنغم وتناغم يجسد المعنى الحقيقى للصداقة فكلاهما لاغنى لأحدهما عن الآخر وأن هناك كلمة سر – على قاعدة التبادل - لايعرفها غيرهما وإليها تعزى جميع عوامل إرتباط وإلتصاق النفس بالأرض .. والنعرة البلدية ما هى إلا أحد مظاهرها الفطرية التى تجعل للماء والثمار والبذور طعما خاصا ونكهة فريدة تجذب من يذوقها للعودة إن كان غريبا أو عابر سبيل ..على حد قول الكهل للشاب وهما يتماشيان ويقطعان الأمتار البا قية من الطريق إلى الشجرة .. وأمن الشاب على وجهة النظر تلك موضحا رأيه فى أن هذا يفسر سر إزدهار السياحة ووقوع الوطن لفترات طويلة عبر التاريخ فى براثن الإستعمار ! وبلغ به إعجابه بوجهة نظره مدى أنساه نفسه فتوقف يفكر بعمق فى نهر الطريق إبان عبورهما مما أنذر بتعرضه للخطر من السيارات التى تمرق مسرعة لولا أنه تصادف فى تلك الآونة خلو الطريق مما أتاح لرفيقه الكبير أن يجذبه موقظا إياه من تصمغ أفكاره بالأرض وتسلطها عليه .
وتم لهما العبور بسلام دون أن يتبادلا المزيد من الكلام الذى يعرضهما

للخطر ! حتى بلغا الشجرة وهناك وجدا بإنتظارهما مفاجأة أغرب وأنكى .. فالطائر المتحدى .. عاود الجلوس على مؤخرته محدقا لاتتحرك له نأمة وهو يرقب عن كثب إقترابهما منه .. ثم وهما يتوقفان قبالته فى بلاهة التلميذ الذى أخفق فى الإجابة على سؤال معلمه ! فقط يجيلان النظر إليه دون صوت وكأن على رأسيهما الطير !

وتحير الإثْنان أكثر عندما وجدا أن عليهما أن يقولا أو يفعلا شيئا ! ولاك الشاب كلاما غير مفهوما فسأله الشيخ بصوت ذاهل أثناء تحديقهما :

- هل إقترفت بعد صلاة الفجر .. ذنبا آخر يا بنى ؟!

فجاوبه الشاب دون أن يعى :

- لا ولكن يخيل إلى أنه يقصدك أنت تلك المرة .. أنظر لعينه إنه يرشقك بها وكأنه يبغى ثقب وجودك للنفاذ إليك ! أنظر .. ما أظنه إلا يريد أن يقول لك شيئا ! ..

وأمسك عن الكلام إذ تحرك الطائر بغتة ورف فى الفراغ بيتهما بجناحيه هنيهة قبل أن يحط على صدر الشيخ فى موقع القلب فتراجع هذا للوراء مأخوذا بالبغتة حتى أوشك أن ينقلب على ظهره فى الترعة ! بينما كان الطائر ينقر على هذا الموقع الحساس الذى يحوى ردود فعل الإحساس نقرات ثلاث بمقدمة منقاره المدببة ثم طار مبتعدا وهما يتابعانه فى شداه ينما كان يعلو ويهبط فى حركات تشنجية غريبة ويزقو بصوت فيه غنة الحزن والألم كأنما يروم العودة إليهما .

.لم يفهما غير ذلك تخوفا ! ووجدا نفسهما يجلسان فى آلية وذهنهما مشتت ومرت سيارة إسعاف تطلق نفيرا مزعجا وفى إثرها سيارة شرطة تحمل جنودا بأيديهم هروات وعلى رءووسهم طاسات ! ومر فى الطريق المعاكس قول من السيارات النقل الصغيرة يحمل جهاز عروس يتنافس أقاربها المرافقين فى إظهار فرحهم بتلك المناسبة بطريقة تتناغم مع الزغاريد وأبواق السيارات !.. وفى التو بالطريق المعاكس قول آخر من السيارات الخاصة يتبع سيارة لدفن

الموتى فى سرعة منتظمة دون صوت .. واستغرق الصاحبان فى تأمل كل هذا لدرجة أنستهما ما فعل الطائر .. ثم ساد صمت طويل ...

- ٤ -

وإنتبها على صوت إمرأة ظهرت فجأة ووضعت أرضا عن رأسها سلة كبيرة من هذا النوع المصنوع من الخوص والشهير فى توصيل هدايا « صباحيات العرس « و « الأعياد والمواسم ذات الطابع الدينى !» وبادرتهما لتوها بالتحية قائلة بلهجة مرحة : -

العواف ! .. يا ختى ! .. ماهذا .. بحلقة !؟ .. هيه .. أنت وهو .. أنا هنا .. أمامكما ! ..

غمغم الشيخ وكأنه يصحو من نوم :

- ماذا يا سيدة .. ؟ .. ماذا تريدين ؟ ..

على حين راقب الشاب ما يدور مواصلا صمته .. وجلست المرأة على الأرض بينهما فى تبسط وهى تقول :

- آهى قعدة والسلام .. ! .. أأجد عندكما شربة ماء .. أم أنكما مثل المحروق لاتبلون الريق ! تمتم الشيخ وهو يصب لها كوب ماء بارد من حافظ للحرارة كان إلى جانبه :

- طبعا ..

وتجرعت المرأة الماء بصوت مستطعم ملحوظ .. ثم قالت بلا مناسبة وهى تنظر فيما أمامها :

- غريبة هذه الدنيا .. من أحببته وأخلصت له وكنت تحت رجليه كالخادمة نشف ريقى وطلقنى .. ومن لا أحبه .. زوجى الجديد ! أكرمنى ويتمنى رضاى عنه !

إفترت أسارير الشيخ لبساطة المرأة وتطوعها لبث أسرارها دون موجب او منطق .. وتبادل والشاب الإبتسام ونظرة تحفل بالكثير من معان العطف عليها .. وسكنت هى لحظة ثم نهضت من جلستها وحملت سلتها على رأسها ثانية وتأهبت للمسير فعاجلها الكهل قائلا :

- أهكذا تغادرين بسرعة ..
أجابته وفى عينيها نظرة تشى بمختلف المشاعر المتناقضة وهى تقبض على السلة بيد وتضرب صدرها باليد الأخرى :
- تريدنى أن أبقى يا رجل يا عجوز !
ولم يحر جوابا فأردفت :
- تقصد أن تسمع حكايتى كاملة ! .. طيب .. تصور أن يطلقنى المحروق ومعه منى سبعة عيال ! .. لا .. لا تقلق هم معه الآن .. وتزوج من واحدة قوية عينه طالعة منها وبيقول ولا يوم من أيامى !
ونهنت بغتة بالبكاء فى جهيش محزن مهمهمة :
- آ ه يا حبايبى .. !
واستتلت وهى تكفكف دمعها :
- بسبب أوهام الشك وصلابة الدماغ والرأى ! .. أتعرف .. دائما كان يقول لى أنظرى بعينى ..! .. وكنت أجيبه طب وعيناى الجميلتين ماذا أفعل بهما ؟!.. فيزعق فى بكلام غير مفهوم ..وكأنها مؤامرة .. نعم كان يبغى سرقة عينى اللتين لامثيل لجمالهما .. حتى انظر .. دقق ولا يهمك .. قالتها وهى تضحك وأجفل الشيخ بعينيه بعد أن تزود منها بنظرة سريعة فسكنت هنيهة كأنما تعجم أعماقه وأردفت : - كان يريد مبادلتى عند جراح العيون ! .. تصور عينيه المدغشة ! .. ساءه شموخى ! .. ولم يشفع لى أولادى .. أتعرف .. لم تكد تنتهى أشهر العدة إلا وتزوجت كيدا له كما فعل ! .. هذا الذى لم ينادينى طوال حياتنا معا إلا يابنت .. تعالى يابنت .. روحى يابنت .. أنت فين يابنت !.. أنجبت له أورطة عيال ومازلت بنتا !.. بينما الجديد الله يحرسه لشبابه ! لاينادينى إلا بست الكل !.. نور عينى !
- يعنى كان لايناديك بإسمك هو الآخر .
- ولكن فرق كبير بينهما ! .. إسمع .. الكلام معك لاينتهى .. أنت تسرق وقتى كما سرق المحروق عمرى ! وأنا فى طريقى بالزيارة للدكتور سرحان شقيق

زوجى الجديد طبعا .. العواف عليكم !
وتحركت بنشاط لتعبر الجسر الخشبى وهى تدب بحذائها موقعة لحنا - دقاقا - على الخشب الذى جاوبها بأصوات رنانة ممتلئة كأنما يرحب بأنوثتها وتابعها الصاحبان بأعينهما حتى توارت « بالطرقة الممتدة « المحفوفة بالأشجار الباسقة للكافور والكازورينا التى تعمل كمصدات للرياح تحمى شجيرات الحديقة المثمرة . وغمغم الشاب :
- إمرأة غريبة .. ولكن قل لى .. لماذا نقر الطائر على صدرك فوق موضع القلب ثلاث نقرات !
فأجابه الكهل بعين الطريقة :
- ولماذا غطست أنت فى الترعة ثلاث غطسات !

***

تبادلا النظر فى آن ولم يجب أحدهما سؤال الآخر وتوسد الصمت بينهما ثانية ليعود فينقطع على أثر جلبة أصوات آتية من الجهة التى إختفت فيها المرأة ثم ظهر فى التو رجل طويل القامة متين البنية يرتدى قبعة « رعاة البقر ! « يهم فى إثره رجلان يرفع أحدهما « شمسية « ويبدى حرص التابع على ان تظلل وجه السيد ! .. ويرفع الثانى على كتفه الأيمن بندقية بطريقة مضحكة تشى بأنه لايعرف كيفية إستعمالها من هذا الصنف الخشبى العتيق الذى يستعمله الخفر وما عبروا الجسر واصبحوا فى حرم جلسة الرفيقان حتى إبتدر الشاب الرجل محييا بطريقة تدل على سابق تعارفهما بقوله :
- أهـلا دكـتـور سرحـان .. كيف الـحـال .. لم نتقابل منذ مـدة .. فرد هذا تحيته بنوع من الترفع بإيماءة من رأسه وهو يرمق الكهل بنظرة غير مريحة فأسرع الشاب يعرفهما إلى بعضهما فلم يبد السيد إهتماما وكأنه غير مستريح لتلك المعرفة وبدون سبب ! واستشعر الصاحبان بعض

الحرج مما إضطر الشاب الذكى إنقاذا للموقف الى تغيير دفة الإهتمامات لأى موضوع آخر فتساءل :

- أكيد قابلتكم إمرأة تحمل على رأسها زيارة فلاحى من أخيك يا دكتور .. ؟

- أخى ؟ .. أخى من ؟ .. ليس لى أخوة ..كان لى أخوين .. أحدهما مات فى الحرب والثانى مات بداء الكبد .. يبدو أنكما تتسليان بالناس .. ! .. شوفوا لكم شغلة أفضل .

قال ذلك من طرف لسانه وهو بنظر إلى لاشىء وفى تلك الأثناء ظهرت سيارة فارهة بغتة على الطريق المقابل وبدا علي السيد أنه على موعد معها فمشى نحوها وهويوسع الخطى وأسرع السائق بالنزول وفتح الباب تأدبا قبل ان يبلغها ويركبها ومن ثم إنطلقت به وعاد تابعاه وعبرا الجسر وإبان ذلك سمع الصاحبان أحدهما يقول للآخر :

- لقد تمتع وحده طبعا لأنه غير مسموح لنا أن ننظر لما نظر إليه فهو سيدنا !

فجاوبه الثانى قائلا بحمية :

- يا أخى إعقل .. لا تنظر للموضوع بتلك العين !

-٥-

أصاخ الصاحبان السمع لهذا الكلام وارتسمت فى أعينهما نظرات الدهش والفضول وسؤال زاعق يتواثب كالفراشة الحائرة بينهما « عمن تكلم الرجلان ؟ « ولبثا على تلك الحال وقتا حتى أخرجهما صوت زاعق آخر يتساءل :

- لم تنظران هكذا .. أرأيتما رجلا يمر أمامكما بالترعة راكبا بلاصا ؟!

كان الصوت لرجل يبدو من لكنته أنه ليس من أهالى المنطقة وتحولت نظرات الإثنين إليه بعين الفضول ..وأكثر للغرابة التى تم عليها سؤاله وفى النهاية سأله الكهل بدوره مستريبا :

- كيف يركب الرجل بلاصا فى الترعة ويمر بسلام ؟!

فأجابه دون تكلف وببساطة متناهية :

- هذا ما حدث !

- من أين أنت ؟

- إن كان ثمة أهمية لهذا السؤال فأنا من هناك !

- أحسن ناس !

- شكرا.. !

- وما حكايتك ؟

تنفس الرجل الصعداء فران السكون برهة أجاب بعدها بصوت كأنه يغنى فى أعماق بئر :

- حكايتى مع شريكى حكاية طويلة !

فقاطعه الكهل محتجا :

- هل ستغنى تكلم بجدية واختصار يارجل أو إذهب لحال سبيلك !

إنضبط الرجل فى وقفته كما لو كان على وشك أن يضرب تعظيم سلام وغمغم :

- حاضر يا صاحب العزة .. ! .. هو يرى تخطيطها بالعرض وأنا أرى إستمرار

تخطيطها الطولى !
- تخطيط ماذا .. تجارتكما .. ؟
- تقريبا ..
وبدأ الرجل يغنى فعلا :
- حب الوطن فرض عليا !
فأثار حنق وتبرم الشيخ وهتف ثانية محتجا :
- لاتحاول أن ترتدى مسوح الغموض !
- مسوح الغموض يالها من كلمة .. سأحاول إستعمالها !.. النهاية .. قلت نعم تقريبا فلتجارتنا منطقة عمل إسمها عزيز علينا جميعا ! .. لكن لماذا أنت متغيظ منى ؟! .. النهاية .. على الله كله ..! قلت له يا شريكى أنظر ولو للخريطة .. التخطيط بالعرض سيدخلنا فى الصحراء .. حيث لن نجد من يشترى بضاعتنا .. فأجابك .. أنظر أنت بعينى .. المستقبل شئت أم أبيت للصحراء ..
-لقد كان حوارا بين أصمين لا يسمع احدهما الآخر ! .. لكن غريبة .. أنت تعلم لب المشكلة .. أكنت معنا ؟
- لا ولكنى أحب قزقزة اللب !
وبادله الرجل دعابته متسائلا :
- وتقول أنك لم تر راكب البلاص ..
وخطا يبغى الإنصراف قائلا :
- معقول ..سلامه عليكم !
فعاجله الشيخ يسأله :
- سلام من ؟
- سلام الشجعان !
وتوارى ...

- ما هذا الذى رأيناه وسمعناه ؟!
- أنت لم تر شيئا بعد .. !
- كيف ؟
- أنت فى منطقة مسحورة ! .. أنظر هذا التل هناك ..
- خلف الأرض المنزرعة أرزا ؟ .. أشجار عالية ..
- ثم نخيل .. غربا .. ثم التل الأحمر .. أنت تعرف أسمه .. إذن أنت تعرفه .. يقال أن تحته مدينة أثرية قديمة .. وفى أواخر ستينيات القرن الماضى نشرت الجريدة القومية الأولى .. خريطة تفصيلية لها فى صدر صفحتها الأولى ! -وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟
- علاقة وثيقة .. ألا ترى أننا أمام كم هائل من الأسئلة الغامضة التى لا تجد إجابة ..
- أأ ..!
- من فضلك لا تقاطعنى أعتقد أن السبب يرجع إلى أننا فى منطقة مسحورة !
- تقصد تاريخية .. أثرية .. العالم كله على تلك الشاكلة تاريخى وأثرى .. قد أستهلكت الأرض تماما من كثرة إستخدام الأحياء لها ..بمن فيهم الإنسان ..تراب الموتى فى كل مكان .. بمن فيهم الإنسان ! .. نعم ليس هناك شبر يخلو من التراب المتخلف عن تحلل الكائنات الحية .
- تقصد الميتة !
- إياها أقصد .. وهذا نوع من العولمة !
- دورة هدم لازمة للبناء ..
- لا يختلف عليها نظر !
- إنتبه .. قد تغير الحال .. هذا عمل ربانى !
- تبارك الله أحسن الخالقين .

-٦-

نعق غراب فوق أطراف شجرة كافور .. ونق ضفدع يتواثب بين الأحجار على حافة الترعة .. وخارت بقرات فى حقل قريب .. أعقبه صهيل فرس .. وخشخشة صوت النسيم الذى إشتد فجأة بين أوراق الشجرة .. وتجمعت سحب صيف بيضاء فى تظاهرة غير معهودة .. فى هذا الوقت من العام .. قبل أن يحمل إليهما عابر سبيل خبر حادث سير وقع شمالا على بعد قريب وراح ضحيته رجل ملتاث يحمل بلاصا ! .. فتجهما وشعرا بأن كبد الدنيا كله يصطرع فى قفصى صدريهما وتكالبت عليهما خوانس الأفكار وراحا يلهجان بحديث لامعنى له كما لو كانا يهذيان وتبين أحدهما صوت الآخر يجمجم قائلا :

- تكاثرت علامات الإستفهام .. كبرت وتضخمت الفيروسات !

فجاوبه الآخر وهو يزفر زفرة حارة :

- وشحت نقط تمام الجمل والعبارات .. غرقت كالعبارات وكالأجنة فى البطون !

- آ ه .. ! .. بى رغبة للوقوف إحتجاجا ! .. أعتصم .. أتظاهر !

- نعم .. نعم .. هناك كثيرين مثلك فى بلدة الخلاف على القسمة .. بالطول أم بالعرض .. بلدة هناك ! .. وجوههم وضاءة .. مثلى ومثلك .. ودوا لو هتفوا بالسقوط والأرض حبلى !

- ويرفعون تلك الوجوه السمحاء لكبد السماء الصحو .. تبحث أعينهم عن طيور غريبة لاتغرد لأنها مريضة بالإنفلونزا !

- إنفلونزا الطيور ؟!

- لا .. الخنازير !

- لكنك ذكرت طيور ! .. آه هذا من كثرة النظر للوراء بفخر لأجداد عظماء !.. آه .. إسمع .. أنظر !

وأشار بأنامله إلى حيث حديقة البرتقال والليمون خلف الجسر .. وإمرأة تبرز من خلال الشجيرات بعيدا عن الطريق الذى سلكته قبلا .. منفوشة الشعر مبعثرة الثياب كالجنية .. تحاول بعصبية تنظيم وترتيب أوضاعها للسير بين الناس بلملمة شعث جسدها وشعرها تحت الملاءات السود ! .. وعبرت الجسر بذهن شارد وأعينها تتحاشى النظر إليهما .. وتلوك كلاما غير مفهوم عن ثلاثة رجال كانوا يختبئون كالثعالب بين الشجر ووثبوا عليها من كل جانب ونهبوا منها كل شىء حتى الزيارة التى كانت تحملها لشقيق زوجها المحترم !

والغريب أنها تجاوزتهما وهى تثرثر على هذا النحو بالكلام الذى كان يقطر من فيها كاللعاب غير المرغوب فيه ولم تنس أن تذكرهما بالتحية قائلة :

- العواف ! .. أنا ماشية بقى ! .. لا تحزنا لأجلى !

وواصلت السير مبتعدة على الطريق جنوبا كأنها تمشى فى حلم مزعج وعندما أصبحت نقطة سوداء .. تناهى إلى سمعهما صوت فرملة شديدة تسرسع لعجلات ضخمة وعديدة .. ورصدت أعينهما عشرات من النصال والفئوس والعصى ! تخرج من الحقول إلى الطريق تلوح بها الأيدى .. وجاءهما الخبر الثانى المشئوم عن دعس إمرأة تمشى كالنائمة تحت عجلات شاحنة .. تحمل أذرة صفراء من الميناء .. ومطاردة الفلاحون لسائقها التعس حتى أمسكوا بتلابيبه ومزقوه إربا لعدم إحترازه واستهانته بأرواح البشر وبالدم الزاهر الذى سال على الأسفلت أمام بنى زاهر !..

وحرك الحادث لواعجهما بشدة أكثر من الحادث الأول لظروف المرأة المسكينة .. لدرجة أنهما إنخرطا فى موجة عارمة من الضحك الهستيرى الكئيب وحاولا الفكاك منها بكل مافيهما من عزم ! .. وإذ تمكن الشيخ من ذلك زفر زفرة حرى وفاجأ صاحبه الشاب قائلا كأنه يقضى بأمر مفروغ منه :

- يا للأسى .. عمر الستين ليس مناسبا بالمرة للإحالة للتقاعد .. فهو عمر إكتمال التجربة ونضج الخبرة وذروة الحمية للعطاء ..!

وحدجه الشاب فى تغيظ وهو يحدث نفسه « أ.. أنا إذن أمام رجل من الجيل الذ كان يتخرج فيجد باب الوظائف الميرى مفتوحا عن آخره فيدخل وكله حرص على أن يحكم رتاج الباب كيلا يدخل أحد بعده !

وتغيظ فى أعماقه أكثر .. لتباهيه بخبرته وقدرته على العطاء .. وكأنه لايدانيه أحد .. وتهربه من إجابة سؤاله التقليدى المتكرر « أنظر كيف ؟! « لكن علاقتهما كانت قد تعمقت فلم يفقد جادة الأدب معه ولإعتبار كبر سنه أيضا وعاوده إلحاح السؤال الأبدى لدهشته وازداد تحديقه حتى إتسعت عيناه ! وألفى نفسه يلقى به وكأنه يهزل :

- أنظر كيف ؟!

وبادله العجوز النظر بفضول وقام من جلسته مظهرا تضايقه وتبرمه من إصراره العجيب على طلب الإجابة مع أن فى الأفق وفى كل مكان تتساقط الأسئلة كالجثث كالحجارة ولا أحد يجيب فلماذا يتوجب عليه هو أن يجيب من دون غيره !.. ومع ذلك تطوع قائلا وهو ينظر فيما أمامه دون أن يجلس :

- عندما تصل يابنى إلى مثل سنى ستدرك الإجابة !

- كيف ؟!

- ألم تسمع ؟ .. أنظر !

- هكذا !

وضيق عينيه بطريق مضحكة مقلدا طريقة من لايبصر وضحك الشيخ فعلا وتمتم :

- تقصد أن تظفر بخلاصة تجارب عمرى دون تعب !

- والله إحترنا واحتار دليلنا تريدوننا أن ننظر بأعينكم ونعمل وفق تجاربكم ومع ذلك تبخلون علينا وتريدوننا أن نتعب أولا !

- هكذا أنتم يا أبناء هذا الجيل لاتكفون عن الشكوى وتأنفون النظر بأعيننا !

- وأين هو مانتعب فيه ؟! .. إننا ننظر لأعينكم فلا نرى شيئا !
قالها فى شبه صيحة من كمد وسخط مكتوم فتجاهل العجوز سورته وأجاب وهو يعود للجلوس :
- لديكم الكثير .. لقد تغير نظام البلد لأننا لانعيش وحدنا فى هذا العالم .. وأبسط ما يقال عن الوظائف أنها إنتقلت من الحكومة إلى القطاع الخاص .. وأنتم لاتريدون أن تتغيروا !
صاح الشاب بعين التغيظ الذى بلغ أقصى مدى :
- بل نريد أن نعيش مثلكم ! .. كنتم تعيشون حياة سهلة فلماذا تريدونها لنا صعبة ومتعبة ؟! .. ألستم كنتم تتمرغون فى التراب الميرى ؟! وأنتم آباءنا .. حسنا نريد أن نحيا مثل آباءنا الأولون ! .. أنظر أنت لنفسك .. أنظر واعدل .. قضيت فى وظيفتك ما يربو على الأربعين عاما ولم تكتف ! .. تريدها مدى حياتك ! .. أدمنت الكرسى الميرى المريح ! .. تأبى إتاحة الفرصة للشباب !.. أهذه عينك التى تريدنى أن أنظر بها !؟
وللمرة الثانية أو الثالثة يهب الشيخ واقفا فى ضيق من لهجة الشاب التى تغيرت مع الأحزان والكروب العامة ويسرع بجمع حاجياته و يركب سيارته ويذهب دون صوت .. !

- ٧ -

ولأول مرة لايأتى فى الصباح التالى ...
ولا فى أصباح عدة أيام تالية ...
واستشعر الشاب الذى كان ينتظر حضوره بفارغ الصبر كل يوم أن العجوز قد ناله بعض الأذى للهجته القاسية وحضوره الساخن وتغيظه وإعلانه السافر عن سخطه وتبرمه فى مواجهته ..
وأكثر من ذلك إدعائه أن ما يعوز جيله مجرد الخبرة .. وهذه كذبة كبرى فالخبرة منشورة بسخاء فى شبكة المعلومات الدولية وفى حركة المجتمع النشطة على جميع الأصعدة نزولا حتى الأرصفة .. ! ..وهى ذريعة أراد أن يدارى بها حقيقة التردى فى وهدة حب المادة والرغبة المحمومة فى الإستحواذ والثراء السريع وقد صدق الشيخ حين صرح أنهم يريدون ذلك دون تعب وكفاح .. سيقول له أنه على حق ولذلك كثرت قضايا سرقة الأموال والنصب ومآسى غرق الشباب المهاجر فالبحر بحثا عن فرصة عمل فى بلاد الثراء سيقول له ذلك وأكثر فقط يأتى !
وذات ضحى ظهر الرجل بغتة فهرع الشاب إليه من حقل الأرز المجاور للحديقة وهو لا يكاد يصدق أنه عاد من شدة ما فكر فى أنه قد أذاه بصورة ما وأنه ذهب ولن يعود .
وبادره متسائلا عن صحته وأحواله ولم يجب الرجل واكتفى ببسمة إمتنان وشكر إذ كان يدرك أن هزاله وشحوبه سيتكفلان بالإجابة وإحداث أثر أشد تأثيرا وفعلا تأكد له ذلك من ملاحظته تألم صاحبه من طرف خفى ! ووقوعه فريسة اللوم وكيف أنه السبب وأنه على ذلك لمن النادمين !
ولم يتبادلا كلمة أخرى فى ذاك اليوم لأن الرجل إستأذن فى الإنصراف باكرا لشعوره بحاجته للراحة ! فأومأ الشاب برأسه متفهما وانصرف بدوره وهو يصافحه بحرارة شديدة حار الشيخ فى معرفة أسبابها لأنه كان يعتبر أن

مابينهما لم يصل لدرجة الخلاف الذى يورث صاحبه هذا القدر من الشعور البالغ بالذنب !
والغريب أن يتخلفا سويا عن الحضور للشجرة فى الأيام التالية كأنهما على إتفاق وتبدت تلك الملاحظة بجلاء للعاملين بالحقول وأحسوا أنهم على وشك سماع خبر سىء ..
وطال بهم الإنتظار .. ولم يتحمل نفر منهم فضوله وتوجه إلى بيت والد الشاب للسؤال فعلم أن ثمة مرض أقعده فجأة وأن صحته فى تدهور مستمر لسبب غامض حار الأطباء فيه بعد أن أكدت الفحوص والتحاليل أن مسبب المرض ليس ميكروبا يسهل مكافحته بالمضادات الحيوية والمقويات .. وأن العلة فيما أصابه لما يشعر ! وأن به نوع غريب من الإنكفاء على الذات والحزن لن يستطيع معه مواصلة حياته !

***

- ياالله .. !
أطلق صديقه الكلمة عندما حضر ذات صباح وترقب لقاءه وأخبره أحد عمال الحقول صاحب فراسة بمرضه الغريب الذى لايدرى له أحد سببا وكأنه خمن أن العجوز هو الشخص الوحيد الذى يدرى السبب !
وساءه كثيرا أن يكون السبب من حيث توهم .. وسأله عن محل إقامته فوصفه له .. وفى التو توجه إليه بسيارته بالقرية المتاخمة للحقول على الطريق .
كانت قرية صغيرة .. وكان والده أحد رجالاتها كما أن الشاب كان محط إعجاب وقبول الجميع ولم يكن غريبا أن يقف الأهلين على قدم وساق للمرض الغامض الذى هدم بنيانه الشاب القوى ويوشك أن يقضى عليه .. ولذلك ما كاد صاحبه يدنو من بوابة البيت الكبير حتى نشط إليه نفر من

أتباع أبيه على مظنة أنه طبيب تطوع لعيادته وبادره مرحبا بقوله :
- أهلا يا دكتور .. تفضل .. سأخبر الشيخ بقدوم حضرتك .. لحظة واحدة !
فوقف ثمة ينتظر وراح يتأمل واجهة البيت العتيق الذى تبدو عليه سيماء سعة عيش أصحابه ولم يدم تأمله طويلا إذ فجأة دبت الحركة وأصوات تعالت فى أرجاء البيت أعادت إليه الحياة واستطاع ان يميز صوتا يهمهم :
- إنتبه يابنى ستقع من طولك !
وتحير لمن الصوت ومن المعنى بهذا التحذير وأتته الإجابة سراعا إذ ألفى نقسه وجها لوجه أمام بقايا شاب لم يتعرف فيه على أوصاف صاحبه لشدة مافعل المرض المبهم به .. كان جلدا على عظم كما يقولون .

وأسرع إليه وتلقاه فى أحضانه مرددا له فيما يشبه العتاب وبجملة واحدة مركزة :
- لا تأنف النظر إلى عينى .. أنظر فيها وحدق ترى ما يبهجك ويذهب حزنك !
- أهو بحاجة لنظارة .. أهذا دوار ضعف النظر ؟ .. مرحى هذا تشخيص جديد !
تساءل شخص وقور خمن صاحبنا أنه والده وقد خاله طبيبا فأسرع يجيبه :
- أعتقد أنك على حق !
إذن نقيم الأفراح كل ليلة .. ونأتى إلى هنا بكبار المغنيين والموسيقيين والمهرجين .. حتى ينصلح بالمرح إعوجاج نظره !
- لايكفى يا سيدى إقامة الأفراح والليالى الملاح !
- سآتى له بكل مكبرات الصور التى تأمر بها .. سآمر بإحضار أعظم وأحدث نظارة فى العالم ! أنا رجل ثرى !

- إن النظارة قناعة داخل عقله .. وسأعرف كيف أقنعه !
إبتهج الأب وتفاءل بلهجة الطبيب المزعوم وافترت أساريره عن إبتسامة عريضة وصاح كأنه تذكر شيئا هاما على حين غرة :
- الإفطار يا أولاد فما زال الوقت باكرا ! .. إنها معجزة تقع لو أكل معك .. فإن العلة فى إنسداد شهيته ونفسه !
وضحك الطبيب العجوز من أريحية وتعبيرات الأب وهتف :
- حقا إنسداد نفسه و.. نظره !
ثم ربت على ظهر مريضه بحرارة وأردف وهو يضمه برفق وحنان حقيقى إلى صدره :
- ما المشكلة ؟ .. يا أخى مرة أنظر بعينك ومرة تنظر بعينى ..
وسكت عامدا ثم أضاف مبتسما :
- ومرة ننظر سويا بجميع الأعين التى تنظرنا !
وسكت ثانية عن قصد واستتلى بصوت رخيم :
- ثم هناك أحسن الناظرين !

***

وأجهش الشاب باكيا جهيشا محزنا ومع ذلك ومع الدموع التى إنتثرت من الأعين المحيطة به إلا أن الجميع تفاءلوا خيرا بدموعه وأكثر من ذلك تبادلوا التهانى ورفعوا الأكف بالشكر لله الذى أرسل لهم هذا الطبيب النابه العارف بعلته وشجعوه للبكاء أكثر ! لإخراج كل ما تكتل فى أعماقه من الهموم بمخلف أنواعها ! وزغردت النسوة فى الدار لإشاعة روح الفرح والسرور .. والتقطت الألسن الجملة السحرية وراحت ترددها فى لاوعى بما تتركه من مدلول فى نفسه :
- أحسن الناظرين .. أحسن الناظرين !

وفى ذات الوقت - وكأنه ترتيب إلهى - إرتفع صوت الآذان فى مئذنة الجامع القريب أن « الله أكبر .. الله أكبر « .....

وتسللت كلمات الآذان إلى نفسه العليلة فكانت بردا وسلاما وشفاء .. واغتنم الكهل المعالج الفرصة فهلل وكبر وكبر وغمغم بصوت منغم :

- إن الأمر العام ليس بالغ السوء إلى هذا الحد .. تفاءل .. أسعد أيامك .. إحلم .. أليس بمقدورك أن تحلم !

وتشبعت نفس الشاب بالجو الروحانى الذى ساد وفاض بقلبه وعقله وكيانه كله وكف عن النحيب وأخذ يتسمع فى نشوة طلية لصوت المؤذن حتى أتم فأشرق محياه وتبسم تلك البسمة النورانية الشفافة العريضة التى يتوسلون إليها بغنوة «النبى تبسم ! وعاود الإرتماء على صدر طبيبه وهويلهج بالشكر لله .. وكان معنى كل ذلك أنه نال الجرعة الشافية فبكى الجميع من الأهل والأتباع إنفعالا وفرحا والغريب أن يتحول هو إليهم ليهدئهم ويكفكف مدامعهم متوسلا ومتمتما :

- إن الأمر عموما ليس بالغ السوء إلى هذا الحد .. ثم وجه الله .. هيا إلى الجامع نصلى .. ثم نعود لننهل من الطعام .. تفاءلوا .. إن بينى وبينكم حق عرب ! .. أسعدوا أيامكم .. إحلموا .. ! .. أليس بمقدوركم أن تحلموا !

شق القمر

لم يقتنع التلميذ بوجهة نظر بائع القصب الذى طرح أعواده الطويلة على سور منزلهم ولم يراع ذلك وأعطاه عودا به فلق طولى نافذ من الجذر حتى القمة النامية تبدو من خلاله الأنسجة الداخلية المفروض أنها بيضاء وقد إحمرت كما لو كان ذلك نشع دماء وعلل له الأمر حاسما وهو يقهقه حتى بانت جميع أسنانه الصفراء والسمراء المتباعدة عن بعضها بفعل ما ران عليها من دخان وقطران تبغ السجائر والمعسل :

- أنت محظوظ إنه شق القمر !

تساءل التلميذ مستغربا وهو يدير فى رأسه الآية الكريمة « إقتربت الساعة وانشق القمر « التى كان مدرس الدين المسمى « محب « يحفظها لهم والمعروف عنه أنه كان لا يمل ولايكل من ترديد حكايات لاتنتهى عن سفرته فى إعارة لوطنه الثانى « الجزائر « ولم يكن يفرق لشدة حماسته لما لمسه بنفسه – وهو مدرس لغة عربية ودين - من إستشراء مفردات القرآن وقصصه فى لغة هذا الشعب المتدين المجاهد بين مايجوز ترديده على أسماع زملائه بحجرة المعلمين وبين أسماع تلاميذه بقاعات الدرس قاطعا وقت التربية والتعليم فى غير المقرر ..

- شق القمر هذا من شدة السكر بالعود يابنى !

لازال صوت البائع الغشاش يطارده ويقرب لذهنه أكثر معانى الآية الكريمة وهو يدنو من بوابة المدرسة فقرر أن يسأل الأستاذ محب عما إذا كان ثمة إرتباط بين حادث إنشاق القمر فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وبين شق القصب !

وأتيح له ذلك فى حصة اللغة العربية عندما راق لمعلمه المفتون بلهجة تخاطب آل الجزائر التى تغص بأسماء الأشياء كما وردت فى القرآن مثال أنهم يطلقون على السمك بمختلف أنواعه إسم « الحوت « إلتزاما بالإسم الذى ورد فى قصة سيدنا يونس عليه السلام فسأله على إستحياء :

- وشق القمر ؟!

رمفه محب الجزائر فى فضول إذ ما علاقة شق القمر بما يقول وسأله بدوره :
- ماله .. ؟!
تلعثم التلميذ وهو يواصل بقية سؤاله :
- ألا يطلقونه فى الجزئر على شق القصب ؟!
حدجه الأستاذ متحيرا بم يجيب واكتفى بأن إنتهره آمرنه ألا يخرج عن موضوع الدرس مرة أخرى وإلا عاقبه !
وامتعض التلميذ فى سره وتذكر مدرس العلوم الأستاذ محمد محمد فقرر أن يسأله فهو متابع باستمرار للظواهر الطبيعية التى وقعت فى المجموعة الشمسية إبان الحقب الجيولوجية والتى كثيرا ما كان يتحفهم بها ليشد إنتباههم كمدخل لدرس مشابه لعله يجد عنده الإجابة الشافية للعلاقة التى قصد بها حكيم ماكر فى زمن غابر أن يرسخ فى لغة العامة الحادثة الكبرى التى يقال أنها من علائم إقتراب يوم القيامة الصغرى والتى ذكرت فى القرأن وورد فى تفسيرها كما قال له والده ليلة أمس وهو يراجع معه فروضه أنها وقعت فى عهد الرسول الكريم حيث إنشق القمر تماما إلى نصفين متساويين وقعا فوق جبلين بينهما غار حراء .. وأنها جاءت من الله كآية معجزة ليصدقه الكفار المكذبين ..
وأتيح له ذلك فى حصة العلوم ولم يزده معلمه القصاص علما إذ إستغرب سؤاله واكتفى بأن أوضح أن شق القمر مجرد أخدود فى القشرة القمرية غير نافذ ولامتصل مثل أخدود البحر الأحمر فى القشرة الأرضية والذى باعد مابين قارتى أفريقيا وآسيا دون أن يؤدى ذلك إلى شق الأرض نصفين ! ولما جادله بأن رواد الفضاء الأمريكان عند هبوطهم على سطح القمر فى يوم ٢٩ يوليو عام ١٩٦٩ شاهدوا مايشبه الشريط اللاصق الذى لاترى العين نهايته على سطح القمر هز كتفيه وهامته دون أن يحير جوابا وسط تذمر التلاميذ الذين أزعجهم هذا الزميل المزعج الذى لايكف عن طرح الأسئلة غير المقررة على المعلمين !

وفى طريق عودته من المدرسة كادت العربات التى تجرى فى الشارع الموصل لبيتهم أن تدهمه أكثر من مرة لشدة تفكيره فى السؤال ولما أدرك صعوبة موقفه قرر أن يرجىء السؤال لحين زيارة موجه مادة اللغة العربية والدين للمدرسة فهو يعرفه وفى زيارته الأخيرة إختاره للإجابة عن سؤال فى الإعراب والنحو وأعجب بإجابته ووعده بهدية رمزية تشجيعية فى الزيارة القادمة ! ولبث على هذا الأمل أياما وأسابيع ولكن الموجه لم يأت لزيارة المدرسة حتى أوشك العام الدراسى على الإنتهاء واقترب يوم الإمتحان وجال فى ذهنه المثل الذى يقول « حيث يكرم المرء أو يهان « ولازمه صوت ملح يردد المثل فى أذنيه رابطا بينه وبين حيرته من مقصد هذا اللئيم الذى وضع شق القمر فى شق القصب وكيف أنه لابد الذى ربط أيضا إمتحان أخر العام الدراسى بإمتحان أخر الدنيا العسير ! حتى ضج وشكا لأبويه فقللا من أهمية مايفكر فيه .. ولكن ما كان يفكر فيه كان جد بجد ! وأثر فى إستقراره النفسى كثيرا مع حالة شد الطوارىء التى أعلنت فى البيت إستعدادا لبدء موسم الأمتحانات حتى فقد توازنه وفقد شهيته للطعام فهزل وبانت عليه أمارات الضعف وهو مقبل على أهم فترة فى حياته الدراسية حيث يتوجب عليه أن يكون مستعدا تماما من كل النواحى لإمتحان إتمام المرحلة الإبتدائية وفى اليوم السابق ليوم الإمتحان إشتدت حالته سوءا فأسرع به أبواه لطبيب نفسى متخرج من نظام تعليمى دينى من المرحلة الإبتدائية حتى الجامعية إذ كانا يعرفان علة مرضه وحيرته ! وكان والده قد أعطى الطبيب فكرة عنها بالهاتف وهو يحجز موعد الكشف فلما جاء الموعد وكان بين يدى الطبيب فوجىء به يحادثه عما حار فى العثور على إجابة شافية له واصفا له العلاج فى نصيحة بسيطة ألا يحير نفسه وسيعرف الأجابة ذات يوم دون أن يسعى لها فالله سبحانه يحب العبد الذى يستعمل عقله ويتفكر فى الكون ويسعى فى الأرض ضاربا فى مناكبها وهو بعد من السن والعلم بحيث يصعب عليه ذلك قبل أن يجتهد فى تحصيل العلم ويتخرج مثله

وأفهمه كذلك أنه مهما وصل من العلم فلن يصل إلى إجابات لكل الأسئلة وأنه فوق كل ذى علم عليم وأن هناك من الأسئلة ما علم إجابتها عند الله وحده فلا يجزع أو يصيبه إحباط من هذا وختم حديثه إليه بالآية الكريمة :

- إقرأ بسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم .

فهجعت هواجسه واستقرت نفسه وسكن عقله ونام نوما قريرا هانئا فرأى فى المنام جده لأبيه فى ثياب بيضاء يقترب من قراشه تحوط به هالة كبيرة من النور مبتسما إبتسامته الطيبة التى أشتهر بها وربت على شعره فى حنو ودس فى يده شيئا يلمع بشدة مشيرا بيده الأخرى إلى بعيد من خلال زجاج ناقذة غرفة نومه ونظر فرأى ضياء القمر البدر يملأ الأفق بالفضة عند آخر نقطة بلغتها عيناه وسمع صوت جده يتمتم له فى رفق :

- قد خلق الله الكون كله لك فلا تستعجل رزقك !

هتف وهو ينظر فى يده متسائلا فى لهفة :

- وشق القمر ؟! والإمتحان ؟!

- فى يدك !

قالها الجد وهو ينصرف فى عجلة كأنما الوقت المحدد له لتوصيل الرسالة نفذ !

وكان قد رأى مافى يده فإذا هو نموذج مصغر للكعبة .. بيت الله ففرح بها واكتملت له سكينة نفسه عندما قص الحلم على والديه فواعده والده بزيارتها عقب إنتهاء الإمتحانات بإذن الله .

و تعاقبت أيام الإمتحان التى كانت وئيدة الخطى عليه حتى إذا جاء اليوم الموعود للسفر مع والديه وتمت كل إجراءات الرحلة البهيجة من ركوب الطائرة إلى بلوغ الإرم بالحرم وتمت كذلك كل نسك العمرة وجن الليل فى هدأة المكان الذى إستحال نهارا بما أفاض عليه الله سبحانه من نورالهدى لعباده المؤمنين وكان يجلس إذ ذاك مع والديه ولفيف من المسلمين غفير

أمام بيت الله بعد أداء صلاة العشاء يتملى من مرأى الفيوض السماوية وتجلياتها النهائية ويمنى نفسه بأن تتنزل عليه رحمة من رحمات الله فيجد فى هذا المكان المقدس ضالته والإجابة الناهية للأمر الذى حار طويلا فى بحثه وتفنيده .. ولايدرى وكأنه فى حلم بديع تاهت عيناه وهى تحاول الإمساك بهالة أخرى من ضياء شديدة الإبهار تتبدى له فوق الكعبة المشرفة فى خلفية المآذن التى كانت تبدو كأنها أذرع المصلين لمجيب الدعاء وإذا بصوت شبيه بصوت ملاك يهتف فى سمعه برقة :

- قد مسح الله جيم الجهالة فأشرقت على الأرض هالة !

وألفى نفسه يتمتم فى لهفة مرددا :

- هالة العلم والإيمان !

واسترسل ولسانه يردد دون وعى :

- يالرحمة الله .. الإجابة فى صدرى ! نور فى قلبى !

وهو يعرض صدره للضياء كأنما يروم أن يجمعه كله فى قليه فعلا ولما إنتبه إليه والداه وسألاه مابه أجاب همسا بهدوء وثقة كأنما كبر وأصبح ناضجا على حين غرة :

- قد أشعت الإجابة فى صدرى .. الله أرسل من أجاب سؤالى !

وتبسم ودس نفسه فى حضن أبيه تارة ثم فى حضن أمه تارة أخرى وقد كان هذا كل شىء !

عبده وتباع الشمس

-١-

إنهالوا عليه جلدا بسياط ألسنتهم .. لم يتوقع أن يصل تهكمهم عليه من المقترح الذى أدلى به للسادة الأساتذة الجالسين على المنصة تلك الدرجة من القسوة .. فالأمر من وجهة نظره هين إذ ماذا فى تغيير كلمة عباد إلى تباع فى إسم تلك الزهرة التى تتبع الشمس نهارا حيث تذهب !.. مجامع كثيرة للغة العربية أوصت بهذا فلماذا نكون اقّل من الآخرين تدينا .. ؟ جلجل صوته بهذا السؤال المقلق فى أرجاء قاعة المدرج الكبير « مدرج السينيما « كما يطلقون عليه بكلية الحقوق .. فران على الحضور صمت أخاذ وقتا ليس بالقصير ..

لم يكونوا جميعا ممن يعرفهم من أساتذته وزملائه .. كان فيهم أساتذة وطلاب من كليتى الزراعة والتجارة لايعرفهم .. وكانت الندوة أو بمعنى أصح « الإحتفالية « تجمع عمداء وأساتذة وطلاب ثلاث كليات بمناسبة تكريم أوائل الطلبة الذين تفوقوا فى العام الدراسى المنصرم .

- يا إلهى إلام تلك النظرات التى تجمدت فى الأعين .. وعلام تشرئب الأعناق وتتدلى الآذان والألسنة ؟ ! .. ولماذا أستشعر ترددات ضغوط كهرباء حيوية من مئات « الأمخاخ « فى جو المدرج إلى حد ينذر بإنفجار تتبدى لى خلاله طيور سوداء صغيرة ترف بأجنحة خفاقة سريعة الحركة صعودا وهبوطا فى هذا الجو .. والفتيات الحاضرات .. يا لهن ! إنهن على شفا الصراخ فزعا من أن تهبش مناقير الطيور الحادة إستقرار وثبات حجبهن كما لوكن يتوهمن تحقق المأثورة الشعبية عن إلتصاق هذا النوع من الطيور الماصة للدماء والأرواح بأنوفهن !

جرت شوارد أفكاره فيما تخبل على تلك الوتيرة وهو يحدق مشدوها فى الوجوه المستنكرة التى لم يعدها إلى أوضاعها الطبيعية منقذا الموقف إلا ذكاء ومرونة المشرف على إذاعة الإحتفالية وهو يعلن نهايتها فانتبه وغاص

وهو يبحث لنفسه عن مهرب من الأعين التى توهم أنها لازالت تلاحقه فى جموع المبارحين وكاد لشدة ما استولى عليه من جزع أن يسقط بين الأرجل فى زحام المتدافعين نحو باب الخروج ومن زحام أخطر لكلمات قاسية ونابية تسمعها فى أذنيه لأشخاص توهم أنهم يبغون القضاء عليه !

ولما خرج للشارع تنفس الصعداء ومع ذلك مضى يهرول بين جموع الناس والسيارت وهو يلتفت خلفه متوقعا أن يكون وراءه من يطارده من هؤلاء الزملاء الذين يكرهون تفرده وتميزه ويسيئون عمدا فهمه وبالتالى معاملته ويصرون لسبب غامض لايعلمه على ماهم فيه من غى واعتداء وكأنه مس فى عقولهم إبليسا طال رقاده فصحا لينتقم لجميع شياطين الجن والإنس منه لإجترائه على التطاول على إحدى العابدات الصالحات من خلق الله والتى لايدرى لم ذكره لونها بمستشفى « المجانين « الذى يطلقون عليه « السراى الصفراء « أو الخانكة نسبة للمدينة التى يقع بها ربما تمييزا له عن مشفى آخرلا يقل عنه شهرة بحى العباسية بالقاهرة ! فراح يحادث نفسه مهمهما بكلام غير مفهوم واسترعى حاله أنظار بعض المارة فوقفوا يتأملونه مشفقين غيرأنه كان فى عالم آخر لايشعر بأحد .. ودخل بيته وهو بتلك الحال فسألته أمه وهى لاتخفى قلقها عليه :

- من تحدث يابنى ؟

فسالها باستغراب :

- هل سمعتنى أحادث أحدا ؟

أجابته بدهش وتوجس :

- نعم .. أنت لاتتحدث فقط .. أنت تزجى خطبة عصماء !

فهز لها كتفيه بلا إكتراث ودلف إلى غرفته وقبع بها طوال الليل يحاور نفسه دون أن يشعر ويصر على البقاء فى الظلام .. وكلما دخلت عليه أمه وأضاءت المصباح إنتظر وصبر ريثما تخرج ثم وثب إلى زر المفتاح وأغلقه وأثناء ذلك يبتسم ناظرا فى غبشة الظلام إلى نفسه فى مرآة معلقة بجوار الزر فلا يرى غير

بياض أسنانه وكان مبعث سروره إعتقاده بأن تلك الأسنان تضىء فى الظلمة وكأنها تغنيه عن النور !

وفى الصباح توجه إلى الكلية واستشعر قشعريرة إبان دخوله من البوابة الرئيسية وتوهم أن الحرس يرمقونه بنظرة حار فى تفسيرها وإستغرقه التفكير وهو يمشى وئيدا تجاه قاعة الدرس ولم يدر كيف دخلها ولاكيف جلس فى مكانه المعهود وفقط إنتبه من شروده على صوت الأستاذ المحاضر وهو يعلن بصوت خفيض كالذى يميط اللثام عن سر هائل متمتما :

- رجال جهات أمنية عدبدة و « الحدق « يفهم ! .. كانوا فى الحفل وسجلوا كل كلمة قيلت !

فانزعج وارتعدت فرائصه ودارت عيناه فى محجريها .. بل دارت الموجودات كلها من حوله ومادت به أرضية المدرج الخشبية وسقط مغشيا عليه !

وحين أفاق ألفى نفسه فى فراشه غارقا فى ظلام غرفته فاستراح وابتلع ريقه الذى ينثال وفيرا منذ البارحة من بين أشداقه وفى تسارع لم يعتده كادت أن تضطرب له حركة التناوب بين الشهيق والزفير وبين ما إقتضاه إبتلاع اللعاب من سرعة مسببة إختلال حركة المراوح الرئوية وتكون المشكلة أفدح عندما تدخل عليه أمه وتضىء المصباح واضعة « صينية « الطعام فى أقرب موضع إلى بطنه ويديه فيضاف عامل جديد يفرض نفسه بقوة عند بلعه هو الآخر ولذلك كان يرفضه المرة بعد المرة وتتوفر هى على تسخينه مرات عديدة وتعرضه عليه بلا كلل او ملل فكان يلتحف كالعادة بالهدوء والصبر دون أن يهتم لمجرد سماع توسلاتها أن « يبرد قلبها « ويقتات الطعام قبل أن يبرد ! ودون أن يبادلها الحديث بكلمة واحدة حتى تخرج فيشب إلى زر المفتاح ويطفىء النور بينما يتابع بالنظر فى حبور هذا البياض الطبيعى المضىء فى أسنانه عوضا عن النور الآخر الصناعى !

ثم على حين غرة نبعت فى رأسه فكرة .. إن عمه محام شهير وله سلطان ونفوذ وعلاقات وثيقة بكبار رجال الدولة .. فلم لايقوم الآن ويسافر إليه

بالقاهرة ويستنجد به على هؤلاء الذين أوحى الأستاذ المحاضر بأن عليه « طالما يلقى بالأسئلة الدينية الخطيرة التى تمس أمن البلد « أن يكون حاذقا ويفهم أنهم حتما يطاردونه يبغون توقيفه وإلقائه المعتقل ولربما طالبت جهة أجنبية به لإيداعه معتقلا عالميا لشبهات تحوم حوله لإشتراكه الربيع الماضى فى كرنفال شبابى دولى للجوالة والحركة الكشفية لشباب الدول الإسلامية بإحدى الدول المارقة التى يقال انها ترعى الإرهاب ضمن وفد عشيرة الجوالة بالكلية الذى تسيطر عليه الجماعة الدينية حيث كانت إدارة الكرنفال تطوق رءووس الضيوف بأطواق من الزهور كانت الزهرة الغالبة عليها « زهرة تباع الشمس الصفراء «!!

وقد كان وأسرع يرتدى ثياب السفر ودون أن ينطق بكلمة هرول أمام أمه التى إعترضته فأزاحها بظهر يده من طريقه دون ان يأبه إن كانت تلك الحركة من الشدة بحيث أوقعتها أرضا ! وخرج لايلوى على شىء ومضى يهطع فى الشارع حتى بلغ ميدانا فسيحا تقع به محطة الحافلات المتوجهة للقاهرة فصعد إحداها وجلس يفكر ويقدر ويحسب موقفه من الجماعة الدينية بالكلية التى لايميل إليها ويرفض الإستجابة لدعوات حضور الندوات التى يعقدها أعضاؤها لا لعدم تدينه ولا لإنتمائه إلى الجماعة الأخرى التى تدعى الحداثة والأخذ بكل جديد تأتى به رياح المعلوماتية التى تهب على الدوام شمالية وغربية

ولكن لأنه بطبيعته يحب الحرية ويأبى القيود والإلتزامات التى تفرضها مبادىء الجماعة - أية جماعة – على أعضائها ..فهو لذلك غير عضو بأية جماعة ومع ذلك يرى أن موقفه شديد الحرج فهو وإن كان خارج الجاعة الدينية غير أنه لشدة إيمانه وتدينه يبدو دون قصد من غلاة أعضائها وأكثرهم تطرفا ..ولعلهم يدفعونه بخبث دفعا للظهور بهذا المظهر الذى لايمثل حقيقته مستثمرين نبوغه وتفوقه وقدرته الفائقة فى إستحدام معارفه فى التحاور مع الآخرين والتغلب عليهم لتوريطه ! فماذا يفعل .. ماذا يفعل

؟ أيكف عن الكلام ؟
وما زال يفكر على هذا النحو حتى بلغت الحافلة محطة وصوله فى « القللى !» وما هبط واجال البصر فيما حوله حتى وقعت عيناه فيما تخيل على أجمل وارشق و» أشيك « فتاة فى مصر !
كانت تبسم له وبغتة دعته للإقتراب منها بحركة رقيقة ورشيقة من أناملها .. ولا يدرى لم شعر فى حركتها تلك بما أثار خوفه .. وتوهم أن تكون وراءها مكيدة ممن يطاردونه وتذكر قوله سبحانه « إن كيدهن عظيم « فقال لنفسه :
- صدق الله العظيم .
وأنهى وجوده من أمامها توا وأعمل لساقيه الريح يجتاز الشوارع الخلفية الأقل إزدحاما إلى أن إطمان لإبتعاده كثيرا عن منطقة نفوذها وتاثيرها فوقف هنيهة يختطف أنفاسه اللاهثة ثم مضى ينشد عربة تنقله على جناح السرعة فإذا به يفاجأ - فيما تخيل - بعربة أجرة تتوقف أمامه وتعترض طريقه وتجبره على التوقف ونزل منها سائق طويل القامة عريض المنكبين .. أسمر فى عينيه بريق رجال « المباحث « ! والذى عاجله متسائلا بلهجة هجومية :
- أنت الأخ عبده .. أنت ذاهب لعمك السيد !
نسى تماما ما تخيله وشعر ببعض الطمأنينة لما إستشعره فى صوت السائق من أريحية بالغة ودماثة وسأله بدوره مسهلا مهمته بلا مناسبة :
- هل بعثك عمى لتوصيلى لبيته .. !
فأومأ السائق برأسه علامة على الموافقة وهو يدعوه منحنيا بحركة تمثيلية كما فى الأفلام والمسلسلات وإحدى يديه مشرعة لأعلى بأدب والثانية على مقبض الباب المفتوح على وسعه قائلا :
- تفضل !
فتفضل واثبا بداخلها واستقر على المقعد الخلفى الوثير مستريحا دون أن يسأل نفسه « كيف تسنى لعمى أن يعرف بقدومى ؟ « .. لأنه أقنع نفسه

بأن أمه لاريب قد إتصلت به وأبلغته .. وكان فى حال هيأت له أن شخصه معروف بحيث لم تخطئه عينا السائق الذى تعرف عليه بيسر ! .. وكذا بفضل عمه الذى حتما وصفه له بدقة تميزه وسط هذه الملايين التى تتماس أكتافها - عفوا - بشوارع القاهرة !

- ٢ -

على الرغم من بعد المسكن الذى يقيم به عمه فى « ضاحية المطرية « خلف شارع « جسر السويس « .. فإن السائق الماهر فى القيادة وتخطى السيارات وتفادى الإشارات أوصله على وجه السرعة ولم ينتظر منه حين هبط من السيارة أن ينقده أجره وانطلق بها مسرعا حتى لا يعطيه وقتا لمجرد التفكير فى ذلك .

وسرعان ما صعد العمارة الفخمة - ذات الأدوار المتعددة والمصعد – إلى شقة عمه .. كان الوقت عصرا وتذكر دون مقدمات أن اليوم عيد ميلاده الثامن والعشرون حيث نحن فى منتصف شهر مارس تماما . . وحين فتح له الباب طالع وجه عمه الذى تهلل وفوجىء لمرآه فى ذات الوقت وبادره هو معلنا « اليوم السعيد « فنفحه عمه بعين طريقتة المتسرعة ورقة مالية كبيرة مهنئا وأوصاه أن يذهب بعد أن ينال قسطا من الراحة للتنزه و» يشبرق نفسه « على حد تعبيره !

وبعد أن قص عليه قصة إحتفالية الكليات الثلاث والسؤال الذى القاه والإنطباع غير الحسن الذى تركه على أنفس الحضور بمختلف مشاربهم سواء كانوا من الجامعة أو رجال أمن أكد له عمه وهو يحدجه بقلق بالغ ويردد بعطف وشفقة :

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

أنه سيتولى الأمر بكل إهتمام وأن ما عليه إلا أن يطمئن ويخرج لنزهته فشكره وبارح هابطا سلم العمارة قفزا من شدة غبطته ومرحه وبمجرد أن إنفلت من بوابتها سمع - فيما تخيل - سائق سيارة أجرة من سيارات المحافظات ينادى على الركاب من آل بلدته فتعجب لتلك المصادفة التى لايسهل تصديقها إلا إذا كان سكان هذا الحى عن بكرة أبيهم « بلدياته « وتساءل مع ذلك فى نفسه :

- هل أركب وأذهب عائدا ؟!

كان ينتوى التوجه إلى إحدى دور السينيما لمشاهدة فيلم « أيوب « لذاك الممثل المصرى العالمى الأشهر لكن السائق الذى أقله منذ قليل دنا منه بسيارته كأنه كان فى إنتظاره وأقنعه بلباقة أن لقاءهما ثانية محض صدفة بل لحسن حظه هو لأنه يضمر له نزهة جميلة ! فوثب على المقعد اللخلفى الوثير كما فى المرة الأولى بيد أنه هذه المرة كان يبدو مسلوب الإرادة بأكثر من السابقة ولايدرى لم .. كان سعيدا بيوم ميلاده الذى تذكره فجأة والذى لم يسبق له الإحتفال به فى حياته فلم يكن هذا النوع من الترف متاح لأسرته ووقع فى وهمه أن تلك السنة مختلفة عن سابقاتها .. كيف ؟.. لايدرى أيضا .. وأن عليه أن يهتبل كل فرصة سانحة للمرح فلعلها تكون الفرصة الأخيرة مع هذه الهواجس والمخاوف التى تطارده وتطن فى أذنيه بأصوات غريبة لقوم لايعرفهم يسبونه ويحقرونه بلا ذنب أو جريرة !

وبعد مسيرة عدة أميال فى شارع مستقبم غير مزدحم تحفه أشجار الزينة على الجانبين وتتشابك أغصانها العليا ذات الأوراق الشديدة الخضرة فيما يشبه المظلة وأشعة شمس الأصيل ذات ألوان القرمز والذهب تتخللها وتسطع فيها فتنيرها صانعة غلالة كبيرة شفافة من الأرجوان فى بطن الشارع .. وطغى هذا الجو الساحر على وجدانه فغاب عن نفسه لدرجة كاد يفقد معها وعيه الضعيف أصلا وهتف :

- ما أجمل هذا .. وما أجمل ان يحتفل المرء بيوم مولده !

- مبسوط ؟!

- كأن هذا الشارع يؤدى إلى الجنة ! .. من فضلك خذنا حيث الدنيا الحقيقية والواقع فإننى بدأت أتوجس خيفة منك من فرط الجمال الذى أخذتنى إليه .. أنا لاأتحمل .. لاأتحمل هاهى أصوات السباب تعاود الطنين فى أذنى تسبنى وتشتمنى بأقذع الشتائم !

وإبتسم السائق إبتسامة غامضة أسرع بمداراتها ثم عرج إلى شارع جانبى

مختلف تماما وأوقف السيارة أمام مطعم شعبى من هذا الطراز الذى يضع صاحبه أمامه « شواية دجاج « على الرصيف ..قمة الحياة الدنيا ومنتهى الواقعية التى تكتمل بما تناثر حول الشواية من مقاعد ومناضد خصصت لجلوس الزبائن وطلب له السائق « دجاجة مشوية « أكل منها قطعة صغيرة وظهر أمامه شحاذ تسمر أمامه يأبى الإنصراف دون الدجاجة ويوشك لعابه ان يسيل فتركها له وقام ونقد صاحب المطعم ثمنها .. ووثب داخل السيارة فى ذات الوقت الذى إندفع به السائق عائدا إلى مسكن عمه وأمام بوابة العمارةنزل من السيارة وصافحه بحرارة زائدة وهو يثرثر بكلام كثير لم يفهم منه عبده إلا قوله أن « الأمير يطلب مثوله بين يديه وأنه سيمر عليه غدا فى بكرة الصباح ليصحبه إليه « وجالت فى رأسه كلمة « الأمير .. الأمير « كقرع الطبول وهو شارد الذهن لايفقه شيئا وغادر المكان وهو بتلك الحال أمام السائق الذى تابع إنصرافه بعينين ترتسم فيهما علامات إستفهام كبيرة عن حقيقة هذا الشخص المحير غريب الأطوار الذى كلف بإحتوائه وإستحضاره !

كان غائبا فى مسارب نفسه ويبدو كأنه ينصت بكل قواه لأصوات لايسمعها غيره .. وإنشغل بذلك لدرجة أنه لم يلحظ ما سببه لعمه من إرتباك وإضطراب والذى ما فتىء يردد «لاحول ولا قوة إلا بالله « كلما وقعت عليه عيناه .. والغريب أنه نام تلك الليلة قرير العين يؤكد لنفسه أن عمه سيعرف كيف يوقف هؤلاء السفهاء الذين لايكفون عن سبه ولعنه عند حدهم وأهم من ذلك يضع نهاية لمطاردات رجال الأمن السرى فهو برىء كالطفل او الحمل الوديع لكنهم لا يدركون .. وتلك هى المأساة ..

- تبدو عليك رغبة فى البصق .. أفتح زجاج بابك .. أبصق .. !

- معك حق ..!

- ٣ -

وفى صبيحة اليوم التالى غادر الشقة بصحبة عمه وأثناء ذلك تناهى إلى الأسماع أصوت ضجة شديدة تتعالى فى الشارع وكان يقف منتظرا على مقربة منه ريثما يعالج إغلاق الباب بإحكام وجذبته الأصوات المتناحرة فقرر أن يسبقه ليستطلع الأمر وهبط السلم وحال خروجه من البوابة شاهد فريقين من الناس مختلفى الأعمار أحدهما بملابس وأعلام وحافلة حمراء والآخر كل ألوانه - بما فيه الحافلة – بيضاء وقد إرتفعت كل الأذرع اليمنى مشرعة علامة النصر بإصبعى السبابة والوسطى وتكاد شدة عصبية كل فريق أن تذهب بالأصابع لتندب فى الأعين التى ينقدح منها الشررعلى حين يزمجر الفريق الأبيض بمقولة :

- القلعة .. القلعة البيضاء !

ويزأر الأحمر مناديا :

- الشياطين .. الشياطين الحمر !

وأتت لحظة حاسمة – لحسن الطالع – سراعا لما لاحظ أحد الفريقين رواد وأتباع الفريق الآخر يتواثب داخلا حافلته يبغى أن يسبقه وفى لمح البصر كان هؤلاء فى قلب حافلتهم وانطلقت الحافلتان فى وقت واحد يتنافس سائقاهما على أن يسبق الآخر وبلا إحتراز ينذر بوقوع كارثة إصطدام مروعة سواء ببعضهما أو بالسيارت الأخرى التى يكتظ بها الشارع وكلها ألوان حمراء وبيضاء كأنهم فى يوم الزينة الذى تحدثت عنه قصص الأقدمين ! ومالبث أن توارى الرهط المتصارع وساد الهدوء برهة أو نحوها إذ برز من الإتجاه المعاكس على حين غرة سيارتا أجرة تتنافسان أيهما يسبق الآخر ليصل لهدف واحد على قدرما حدس « عبده « .. وعندما توقفت السيارتان أمامه .. هاله أن يكتشف أن يكون هو الهدف المقصود محل التنافس .. لكن خوفه

واضطرابه لم يدم أكثر من اللحظة التى أمكنه بها التعرف على شخصية السائقين إذ كان أحدهما « سائق الأمير المزعوم « وكان الثانى السائق الى دعا الناس أمس للركوب لبلدته ! .. وتأكد لديه الأمر عندما صاح الأول مناديا وهو يلوح له :

- الأمير .. الأمير .. !

وبغتة ولى محياه ناحية بعيدة عنه وواصل مغيرا نداءه ولهجته :

- الأميرية .. الأميرية !.. طريق السلامة !.. شرق .. !

ولما وضع عمه يده على كتفه من الخلف أدرك السبب وشعر بسرور يسرى داخله ويملأه رضى وغبطة فى الوقت الذى رفع فيه السائق الثانى عقيرته مناديا وهو يدنو منهما :

- العين .. العين .. عين الخواجة ! .. طريق الحرية ! .. غرب .. !

وتبادل عبده نظرة متحيرة مع عمه وتساءل :

- مارأيك ياعمى .. نركب أيهما ؟

هز عمه كتفيه فغير إحتفال وغمغم :

- لاهذا ولا ذاك لدينا سيارتنا .

وسكت لحظة واستتلى وهو يجذبه من يده مبتعدا به :

- غريب أمر هذين السائقين .. أتعرفهما ؟

- أحدهما ينادى على ركاب لبلدتنا . .

- لاحظت ذلك !

- والثانى يدعو لأمير ..

- أى أمير ؟ .. الأمراء كثرة غالبة هذه الأيام !

تردد هنيهة ثم أردف مازحا :

- لا أدرى .. قطعا لن يكون أمير الأراضى البور !

- دعنا نذهب من هنا ..

قالها وهو يفتح أبواب سيارته التى كانا يقفان بجوارها وركب داعيا إياه

للركوب فركب وهو مبهور وفخور بها كأنها تخصه .. وأدرك عمه مايفكر فيه فتبسم راضيا وربت على ظهره بحنو وهو يحاول بكل مشقة الخروج بالسيارة من شوارع العاصمة المزدحمة وتم له ذلك بعد لأى وعندما أصبحا على الطريق الصحراوى المعبد قرأ « عبده « لافتات تشير إلى طريق مدينة الإسماعيلية حيث يقيم عمه الثانى الأصغر سنا والقاضى المعروف بالنزاهة التى خلعت عليه مسوح الوجاهة والجاه فسأل عمه مستبشرا وهو يفرك كلتا يديه بفرح غامر :

- أسنذهب لعمى سعيد ؟

- أجل ..

- كم انا سعيد !

وبعد نحو ساعتين كانا أمام بيت العم « سعيد « الذى خرج إليهما على جناح السرعة بمجرد أول نداء أطلقه عمه من بوق السيارة وركب دون ان يوليه إهتماما على عكس ماكان يأمل وأخذ ثلاثتهم طريق المسير دون صوت ينافس صوت السيارة على حين بدا له هو الموقف غامضا وهجس فى صدره هاجس وهو يتساءل عن معنى الصمت الذى يحرص عليه كلاهما وخاصة هذا العم « سعيد « الذى لم ينطق بكلمة ترحيب واحدة به وكأنه - وهو الذى لم يسعد برؤيته منذ أكثر من عام - لم يفارقه لحظة !

وعاودت الأصوات المبهمة الطنين فى أذنيه بصورة مزعجة وتساءل مضطربا فى نفسه :

- أيكونان فى طريقهما بى إلى مستشفى الأمراض العقلية ؟ .. أنا مجنون !؟ .. أيصدقان هؤلاء الزبانية أولاد الحرام ولا يصدقانى ؟! .. أقسم أنهم طول الوقت يكيدون لى ويسبوننى فى أذنى وضباط الأمن السرى لايكفون عن مطاردتى ويركبون السيارات الأجرة متظاهرين بأنهم مجرد سائقى سيارات !! ويبدوأن صوته علا فى آخر جملة إذ تحول إليه عمه « الصامت « وطفق يلاطفه ويهدئه ويذكره بأيام جميلة قضياها معا فى عيد « الفطر» الماضى

بالبلدة مسقط رأسهم وأخرج من جيبه زيادة فى التبسط معه علبة « سجائر « من نوع فاخر وقدمها له وهو يسأل مبتسما :

- سيجارة . . ؟!

ومع أنه لم يكن يدخن فإنه تناول واحدة .. وسمح لنفسه بما هو أكثر من ذلك .. إذ خنع لعود ثقاب أشعله عمه له كأنه يتقى شره بإيقاد سيجارته ! .. وراح هذا يسحب منها أنفاسا عميقة ويسعل فنصحه عمه بإلقائها فهى من صنف حام ! .. فألقاها وماهو إلا أن أدرك أنهم - ثلاثتهم - فى طريقهم لمدينته حيث يقطن مع أمه .. عندما جازت بهم السيارة أحد الميادين المزدحمة وتوقفت ريثما تخف حدة زحام الميدان فى هذا الجانب الذى سيخرج بهم إلى الطريق الزراعى العام والسريع .. الذى يعود بهم للقاهرة ثانية لو أنهم لم ينعطفوا منه إلى طريق أقل درجة يؤدى بعد قطع مرحلة منه إلى مدينته ..

وأثناء توقف السيارة تعلق أحد الشحاذين يرتدى ملابس غريبة كثيرة الألوان بالباب الخلفى حيث يجلس محاولا فتحه وزعق فى وجهه مكشرا عن غضب غير مبرر وقال فيما تخيل :

- أنت تدعوك إبنتى الحسناء هيفاء ! خطيبة الأمير للمثول أمامها فترفض ! .. أنت ترفض إبنة أحمد باشا الكبير والى عكا ! أنت يا صعلوك .. يا حقير !

وأخذ الشحاذ يبصق فى وجهه حتى أغرقه .. وهو لايكاد يلاحق مسح البصاق عن هذا الوجه الوديع بكفيه .. حتى يعاجله الرجل بوابل منها .. وكان لا بد أن يفعل شيئا يرد به كرامته وإلا مات حسرة - كما توهم - من فرط شعوره بالحقارة .. فاستجمع كل قوى فمه وحلقه وأخذ الوضع المناسب لإطلاق قذيفته .. وفى عين اللحظة - ولحظه العاثر - تحركت السيارة مسرعة فسقطت البصقة الكبيرة بعيدا عن مرمى الشحاذ .. الذى إنتعش وابتهج وقهقه ضاحكا .. وما زال يقهقه حتى وقع على ظهره .. ولولا منظر وقوعه المضحك .. الذى أبهج « عبده « بدوره لفعل مايشعر به من إنكسار وخذلان

فعلا مميتا لأن الأصوات البغيضة تضافرت تصب فى أذنيه جام غضبها مع الشحاذ الذى إعتدل بسرعة واقفا وراح يجرى وراء السيارة ويجهز فى فمه القذيفة القاضية ولولا فسحة فى الميدان إتسعت لإنطلاق السيارة بسرعة عجز عن ملاحقتها لربما أغرقه فعلا !

- تبدو عليك رغبة شديدة فى البصق إفتح زجاج الباب بجوارك وابصق على راحتك !

- الشحاذ الوغد أغرقنى بصقا ونحن نجتاز الميدان منذ قليل .. آه لو قابلنى ثانية !

- قطعا كنت تحلم !

- أحلم ؟!.. كيف ؟

- زجاجك لم يفتح يابنى منذ خروجنا من القاهرة !

- أه !

- ٤ -

وفى البيت حيث كانت أمه جالسة فى الردهة تندب حظها العاثر وتبث الله شكواها من هذا الإبن العاق بين النسوة الأخريات من صويحباتها وجاراتها .. هبت واقفة وهى تجهش جهيشا محزنا لحظة أن رأته عيناها التى ذاقت مرارة الدموع الليلة الفائتة ولم تذق طعم النوم وهو يهطع داخلا برفقة كل من عميه المحامى والقاضى . وإستشعرت بحسها المرهف أنه ينتوى الدخول لغرفته مباشرة دون أن يقبل يديها ودون أن يتزود من حنانها فاعترضته وتعلقت بصدره وراحت تبكى باحتراق وتسائله :

- لماذا تفعل بى هذا وأنت تعلم أنك ولدى الوحيد الباقى معى فى البيت بعد زواج شقيقتيك وإخوتك الثلاثة الأكبر منك سنا وإنفصالهم بحياتهم عنا !

وتدخل العم المحامى بينهما وهو يوجز بما قل ودل قائلا بطريقة مضحكة كيلا يفهم أن به علة :

- أوصيك به يا زوجة المرحوم أخى ..

وسكت بغتة عن الكلام جهرا ومال عليها يسر فى أذنها مضيفا بضع كلمات شهقت لها ودقت صدرها جزعا وكان لتلك الحركة منها معنى سارع عمه الآخر بتداركه ومداراته ليشتت تفكير الإبن بعيدا فهمس فى أذنه بدوره :

- إنه يحدثها عن هؤلاء الأوغاد الذين ضايقوك !

واشار له بعينيه إشارة ذات مغزى فهم هو منها أنه يقصد مطارديه والساخرين منه .. وانتهز « عبده « الفرصة وجذبه من ذراعه وإنتحى به جانبا فى أحد الأركان وسأله بتوسل :

- أصحيح .. كان زجاج بابى مغلقا ؟!

وبدت على العم القاضى أمارات عدم الفهم .. فأومأ له برأسه مستفهما كيلا يسمعهما أحد ليزيد ثقته به .. ولعله فهم مايرمى إليه بسؤاله تماما لكنها

طريقته فى التيقن قبل الحكم .. ومضت برهة صمت إبتلع فيها إبن الأخ الحائر المعذب لعابه الذى يسيل بوفرة قبل أن يتهته همسا :

- أقصد .. هذا الشحاذ القذر .. الم يكن هناك شحاذ ؟!

- بلى لكنه كلن مسكينا ضعيفا لا يقوى على المشى .. وكان ريقه جافا ولا يفتأ يردد : ماء .. ماء ! .. أخذ حسنته منى فى لحظة ومضى وئيدا لحال سبيله !

- لم يبصق ولم يقهقه كالمجنون تهكما على حتى إنطرح على ظهره أرضا من شدة الضحك ! عما .. عماه !

- ماذا ؟

- أنا مريض !

قالها بأسى وصوت كظيم لايسمعه أحد فألقاه عمه بإشفاق شديد على صدره وراح يربت على ظهره برفق وحدب أبوى صادق وغمغم مهدئا :

- لاتبشر على نفسك أنت « زى « الفل .. إهدأ يا بنى .. إهدأ يرحمك الله .. بم تشعر بالضبط ؟!

- بالخوف .. !

- بالخوف .. مم .. أفصح لتستريح ..

تمتم بصوت معذب يقطر ألما ورهبة :

- أخاف من كل شىء ياعمى .. من هدأة الفجر والعسس يصيحون من هناك والكلاب تنبح والذئاب تعوى !

- ماذا .. ؟!

- من خشخة فى القش بالجرن أو بين الأغصان .. من هزيم الرعد وانقضاض صواعق البرق على الأطفال والحيوانات الصغيرة !

- ماذا .. ماذا ؟!

- من بندقية مصوبة بين أعواد الأذرة غيلة على برىء يصلى الفجر على « شط « الترعة !

- هناك ماهو أفظع من ذلك .. سلنى أنا .. انا القاضى ..

- عماه .. ماذا ؟!

- أب يذبح أبناءه وهم يتوسلون إليه .. وفى المقابل ولاتسلنى ماذا.. ! جنود أكبر دولة فى العالم .. أتفهمنى .. ؟! .. تلك التى ظنت أنها تسود العالم أجمع بغرور القوة والتخويف من إقتراف جريمة الإرهاب التى يقترفها قادتها وعسكرها فى كل ثانية .. وفى كل أرض توحد الله ضد المدنيين العزل من الأطفال والنساء والعجائز والشيوخ .. عائلات وأسر كاملة ..نعم فى كل أرض عربية أو مسلمة .. والدول التى يبدو فى الظاهر أنها لاتتعرض لإعتداء سافر .. تتعرض لغزو خفى أشد خطورة من الإحتلال العسكرى لثقافتها ودينها وعاداتها وتقاليدها .. ومدارسها ومعابدها ومساجدها .. ثم هى تأبى الإنضمام لقافلة الدول التى تعترف بمحكمة القصاص من مجرمى الحروب لأنها تعرف نفسها .. ! تسود بالظلم و تترعرع بالطغيان لابنشر العدل والحب والجمال ! ولن أفسر لك .. أنت فيما يبدو شاعر ومحلل سياسى لكنك لم تكن تدرى !

- عمى !

- ماذا يا بن أخى ؟!

بغتة ضحك المسكين حتى أدمعت عيناه وغمغم :

- تقول ماذا ؟! .. أنت مريض ياعمى .. أنت مريض ..

- كلنا مرضى .. ليرحمنا الله ..

- ويشفينا .. كلامك أراحنى ياعمى .. أنا الذى كنت منذ لحظات أرتعد من حدقات أعين زهيرات تباع الشمس فى مدرج السينيما !.. وكلهم .. كلهم .. كبارا وصغارا يزمجرون لتخويفى إن عدت إلى هذا التصحيح فى الإسم !.. ويتوعدوننى إن إجترأت وعدت لهذا البهتان فسيكون مآلى كل هذا السب فى أذنى والبصق فى وجهى !.. عمى أنا مريض .. ياعمى أنا مريض !

قالها بصوت عال سمعه الجميع وأنخرط فى بكاء مر كالطفل الصغير فتحركت عوامل الرحمة والعطف فى قلوب كل الحاضرين وتكالبوا عليه لطمأنته وهدهدة روحه وبعث ثقته بنفسه وبالعالم الذى مات قلبه من

حوله وضيقوا عليه كل منافذ اليأس والإحباط لدرجة ان أمه لم تجد مكانا بينهم يقربها منه فعالجت الأمر بمحاولة محادثته من خلف أسوار العواطف والمشاعر والأجسام التى خلصت نيتها لريه بماء الحياة وعبير الرحمة الزكية الرائحة وأهم من هذا وذاك دفء الحماس والرغبة فى الإستسقاء والشم لآخر قطرة ودفقة ! .. وكل هذا مهما علا لم يكن ليعلو على حديث قلب أمه الذى سرى كالكهرباء إليه فخلص نفسه منهم حتى بلغها وارتمى فى أحضانها وهو يتمتم :

- أمى .. أمى .. هؤلاء كلهم مرضى لكنهم يغالطون !.. لايشعرون .. يراءون .. محبطون .. منبطحون !.. أشعر برغبة خبيثة فى تقيؤ نفسى يا أمى .. من فضلك خبئينى فى ثنايا حبك !

- ٥ -

بعد إنصراف الأقارب والجيران مكث العمان معهما ساعة أو بعض الساعة ثم إستأذنا فى العودة من حيث أتيا وبارحا وهما يضربان أخماسا فى أسداس ويرددان « لاحول ولاقوة إلا بالله « !.. ومالبثت الأم أن ألفت نفسها وحيدة مع المشكلة ويبدو أنها قررت أن تكبر عقلها فشعر هو منها بعض التغيير لأنها تحاشت محادثته والدخول - بين الفينة والفينة - إلى غرفته بذريعة إضاءتها ومعالجة إصراره الغريب على الإظلام ! بل وتناست - وربما نسيت – إحضار طعام العشاء له عسى أن يوقظ وخز الجوع فى بطنه الجسوم المضادة لوخز غيبة العقل والضمير ! فيما وراء التضاريس الوعرة التى تتشابك فيها الهموم والآلام الخاصة مع العامة ! وتناومت - أو نامت - بمجرد فراغها من أداء صلاة العشاء .. ونام هو أيضا من فرط تعب ونصب إلى أن أيقظه صوت الديكة مع آذان الفجر فقام وتوضأ وخرج يقصد صلاة الفجر جماعة .

كان بجوار البيت مسجد يرتاده آل الشارع ومع ذلك راح يغز السير نحو الميدان الكبير « ميدان الساعة ! « المفضى إلى كوبرى النهر .. وعبره وهو يمشى الهوينى منتشيا بما أنعشه وأفغم خياشيمه ورئتيه من الأنسام الندية التى تهب رخية سجسجة من مختلف الإتجاهات فى هذا الوقت الفارق لتداعبه وتلاطفه بعد مرورها على ماء النهرالعذب بالطول والعرض .. ويبدو أن إظلام أعمدة الإضاءة التى تكسرت مصابيحها هو سر بهجته وحبوره أكثر !

كان على الضفة الثانية جامع كبير مهجور أو بتعبير ألطف قليل الرواد لقدمه ولأن بجدرانه شروخ تستشرى ضالعة فى السقوف بصفة مخيفة ولم يستثن العطب السريع الإنتشاركالنار أساساته التى هبطت

بعض - أو معظم - قواعدها وشدادات أعمدتها التى بقيت متماسكة شامخة وحدها من ستر الله ورحمته ! ربما لإفساح مجال الأمان للمصلين القلائل ولقرار الإزالة ألا يصدر على عجل لبيت من بيوت الله قبل تدبير الإعتمادات

التى يقوم عليها البيت الجديد البديل وإلا مضت السنون تترى دون أن يدرى أحد - بالضبط – أسباب محاذير التنفيذ !

كان صحن الجامع مضاء - فيما تخيل - بمصباح واحد وهو المسمى بجامع « سيدى مصباح « ولقد طالما تلاعبت به الأفكار العابثة لخلوه من - أو مجرد آثار- ضريح لهذا الإنسى الذى يسمى ذاك البناء المتداعى بإسمه فى حين أنه فى الأصل لله سبحانه الذى يقينا لا يدعو معه أحد من خلقه .

ورأى صاحبنا لدى دخوله خلقا كثيرا على غيرالمألوف يملأون جنباته وأنظارهم جمبعا عليه وهم جلوس دون أن يصلوا أو يقرأوا القرآن تلك القراءة التى أذاع - تجلت عظمته - أنها مشهودة فى هذا الأوان

المبارك قبيل صلاة الفجر .

وفى جانب من الصحن الكبير وبجوار أحد الأعمدة بالقرب من المصباح لمح شيخا معمما يرتدى ثيابا خضراء كلها حتى العمامة .. ووجهه حليق شديد البياض والتورد والنعومة .. وبصورة ملفتة للنظر الأسنان داخل فمه جميعها مغطى « بطرابيش « ذهبية .. وبيده « مسبحة « كهرمانية فيروزية .. والذى ماوقع بصره على صاحبنا حتى تفرسه - فيما توهم - بنظرة طويلة ثاقبة هب على إثرها وأذن لإقامة الصلاة فاختفى توا جميع المصلين !

بالطبع فغر صاحبنا فاه وطفق يجس نفسه والأرض والحوائط وكل مايحطيه وأوشك أن يضع يده على الرجل الأخضر الذى لم يبق غيره وغير رجل آخر لم يستبين ملامحه وقف فى مكان الإمام وظهره إليهما يرتدى حلة « رسمية « سوداء مكونة من سروال وسترة طويلة الذيل من هذا النوع الشهير بإسم « سموكن « ! وبغتة كبر الرجل مبتدئا الصلاة .. وبعد أن إنتهت هرع الرجل الأخضر إليه وأنحنى على يديه يقبلهما توقيرا وتبركا ودعا الأخضر كى يحذو حذوه كيلا يغضبه فسأله هو بصوت يتلعثم :

- لماذا هل هو سيدنا الشيخ مصباح ؟!

وركب رأسه شموسا ولم يبد حراكا عندئذ نهض الرجلان سويا وهما يعتمدان

على بعضهما مما أتاح له أن يرى وجه الرجل فإذا به - لدهشته وفزعه - « عميد الكلية « الذى وجه إليه سؤاله « بالمدرج « فلم يجبه وتسبب فى سخرية الحضور منه وفكرأن يثب عليه ويناقشه الحساب مستنكرا « أكل هذا البلاء يصيبنى لأننى طالبت بالأخذ برأى المجامع اللغوية العربية لما فى تسمية عباد الشمس من شرك بالله؟!»

لكن الرجل عاجله وحدق فيه بعمق وتركيز لما حانت منه إلتفاتة إليه ورفع إصبع السبابة فى وجهه وهويهزها بعلامة عدم رضى وتحذير ! فأسرع يتلاشى من أمامه قبل أن يخطىء فيه فقد يكون العميد حقا ووضع حذاءه تحت إبطه وانفلت من الباب الكبير المفتوح على وسعه وهو يهتف بسقوط الأوغاد جميعا والأصوات المبهمة التى إندلعت فى أذنيه تلعنه وتسبه بأقذع أنواع السباب و اللعن ! وأقنع نفسه بأن ما رآه لم يكن حقيقة بل كان حلما مزعجا وأعاد الصلاة بعد أوبته للبيت ثم أنه إمتنع عن الصلاة فى هذا الجامع - الذى لايدرى لم يؤثره على غيره - لمدة أسبوعين .. بيد أنه عاد دونما إرادة منه وكأن هناك من يدفعه للمسير - غصبا - إليه قبيل آذان فجر أحد الأيام ودلف داخلا فألفى المصباح اليتيم مضاء . واسترعى إنتباهه أن الشروخ فى الجدران إزدادت إتساعا وأستشرت بصورة خطيرة بالأعمدة .. والرجل الأخضر على العهد به جالس إلى أحد الأعمدة بيد أن به تحول - أكثر إنسانية وبساطة - من الأخضر إلى الأبيض من الجلباب إلى « الطاقية « وبلحية خفيفه وعندما إقترب منه لتحيته وجده - فيما تهيأ له وتأكد فى ذات الوقت - أنه شديد الشبه « بجده لأمه « بقامته الطويلة الممدودة وبسماحة نظراته فانكب على يديه مقبلا وردد فى آلية وبصوت من عثر وهو يغرق - بالبحر الأحمر - على طوق نجاة : - جدو .. جدو.. !

ثم قام يصلى ركعتا السنة وإبان صلاته لاحظ أن ثمة من يقف بين راحتيه تماما ملاصقا رأسه وهو « ساجد « بجلباب أزرق وأطراف أنامل قدمين كبيرتين .. وتيسر له ذلك بحركة كانت تلازم عبده دوما فى سجوده وهو

يعتمد منسدحا على ذراعيه بالمرفقين والساعدين والكفين .. وعلى حين غرة إعتلى بتلك الأنامل سطح كفيه وثبته على هذا الوضع المؤلم المشين برهة .. سارع بعدها إلى تثبيته على وضع آخر برهة أخرى إذ إنحنى ورفع ساعديه ومرفقيه عن الأرض وأبقى الكفين فحسب محافظا على سجوده كما لوكان يدربه بأصابع غليظة على حسن السجود ! وخنع له صاحبنا تماما مرجئا إبداء التبرم والسخط إلى أن ينتهى من الصلاة .. وما إنتهى حتى تحفز لمواجهته توا .. ونظرأمامه فلم يجده كأنه « فص ملح وذاب « !

ثم إن جموع المصلين غادرت الجامع كما حدث فى المرة السابقة بمجرد أن أقام الرجل « الأبيض « الصلاة بصوت جده !

والغريب - فيما توهم - أن شبيه جده أو - جده المزيف !- مالبث أن إختفى هو الآخر.. دون أن يصلى .. وألفى نفسه فى صحن الجامع الذى يعمه الصمت الرهيب والسكون الأخاذ وأنوار المصباح الوحيد تصنع ظلالا بعد تلك النوعية من الأحداث الموهومة التى توالت فى ذهنه !

- ٦ -

سلم أمره لله وصلى وحيدا .. وأثناء الصلاة سمع صوت قرقعة وارتطام أجسام صلبة بالأرض وعلى الأثر عصف غبار كثيف بالمكان وملأعينيه وخياشيمه وصوت رصين كصوت جده الفقيد ينادى عليه كأنه آت من بعيد قائلا :

- يا عبده .. أنفذ بجلدك .. لاعاصم لك اليوم .. أنفذ بجلدك .. لا تكن مثل ولد سيدنا نوح .. أطلق لساقيك العنان .. أخرج .. الجامع ينهار !

ولحسن حظه كان باب الخروج قريبا منه فأنهى الصلاة - أو بالأصح قطعها - ووثب خارجا .. وفى عين اللحظة التى تم فيها تواجد جميع أجزاء جسده بالشارع إخترق أذنيه صوت دوى هائل وخاف ان ينظر خلفه فيقل سيعه المحموم للفرار .. وتوالى الدوى وغص الشارع بسحائب الغبار فلم يعد يرى إلا قليلا فى غبشة الأضواء الفضية للقمر الذى كان بدرا فقام بعمل المصابيح المطفأة أو بالأحرى الدائمة التكسر فوق الأعمدة .. لأسباب عدة أهمها « تشويح « أطفال الحى بالكرة عاليا وهم يلعبون .. ومع نجاته وتباعده عن مركز الخطر .. فإنه وجد صعوبة وحشرجة فى التنفس فتوهم أن رئتيه قد إمتلأت عن آخرها إلى القصبة والحلق بالرمل والغبار فصرخ :

- أنجدنى يا ربى .. !

وشعر بضربة أليمة على « أم رأسه « من الخلف أفقدته وعيه .. فسقط مغشيا عليه وحين إستيقظ لاحظ أن كل شى حوله أبيض .. الأسرة وفرشها والجدران وإناث بمعاطف بيضاء كن يرحن ويجئن فى المكان بقلق ولما لمحنه يتحرك فى فراشه رفعن عقائرهن بالصياح ورددن :

- أفاق .. أفاق !

فتغيظ لسبب لم يفهمه وصاح بدوره معقبا :

- نعم .. أقفت .. افقت .. ماذا كنتن تردن .. أن يمسك الله نفسى وهى متوفاة فى النوم ولايرسلها فيقضى على الموت !

وسكت هنيهة يبتلع ريقه الذى جف فجأة على غير العهد به تلك الأيام وتساءل وهو يتلفت حوله :

- أين أنا .. ؟

قيل له أنه فى مستشفى فعاود السؤال :

- أى مستشفى .. ؟ ..

وفكر لحظة قبل أن يضيف بحذر وخوف :

- السجن ؟!

وشعر بالصدمة عندما سمع أنه لبس مستشف العقلاء !.. وأخذ يصرخ مستهجنا :

- إذا لم يكن حقيقة ما رأيته فلماذا أنا جريح .. ؟

- ..... ؟

- ولماذا أنا فى هذا المستشفى اللعين ؟! ..

- ..... ؟!

- أما كان أولى أن أكون فى مشفى عادى بعد أن تلقيت هذ الحجر المداوى على أم الرأس من الخلف ..؟!

- ..... ؟!!

- لم لم تفكروا فى الضارة النافعة .. أليس محتملا أنه إنتشلنى من الجنون الذى ترونه ولا أراه .. وإذن فلا معنى لوجودى هنا فى هذا المستشفى المهين !

- .....؟!!

- أنجدنى ياربى ممن لايشعرون ولا يسمعون !.. هؤلاء الذين على الأرائك يجلسون .. يعبون الشمس فى قزايز ! .. ويقرأون الجرائد على المكاتب ولا يفعلون شيئا على الإطلاق .. أولا يفعلون مايقولون.. والشارع المسكين يغص بالفوضى المنظمة.. حسبما تؤدى ريح العولمة التى تهب شمالية غربية .. كما تقول كتب الجغرافيا وعلم عباد الشمس !.. رباه عادت الأصوات اللعينة

تتوسد صيوان أذنى من جديد وتدق الطبول!
ولم يقف تدهور حاله عند هذا الحد إذ كان دقها فى أذنيه - بما يكره - يتعالى مع زعيقه مما زاده هياجا . و قضى بالمستشفى شهرا ونصف قبل أن يتحسن ويدخل مرحلة من الهدوء النسبى والصمت الحذر والأهم من ذلك التنبه والتعقل بعد خضوعه للعلاج المكثف تلك المدة .. مما حدا بأطبائه أن يشيروا لأمه وإخوته بإمكانية مواصلة العلاج بالبيت .. وأمروا بكتابة تصريح خروجه وهم يمازحونه ويوصونه أن يفبل العالم كما هو بخيره وشره فالحياة الدنيا .. دنيا لكنها تستحق أن نعيشها فرد عليهم قائلا :
- كل هذا وأكثر أعلمه .. لكنها دنيا نعيش فيها وليست دنيا تعيش فينا ..لماذا نتحسر على أخلاق الزمن الجميل والجمال أحد مكونات الفطرة التى نولد عليها .. ؟!
وأنعم أطباءه النظر طويلا فيما نطق به .. وعلى الرغم من وضوحه وبساطته .. بدا فى الأمر ثمة معضلة .. « إن الفتى النابه على مايبدو يدرك سرعلته .. ولا أحد يعلم .. فكيف يمكن أن يكون مريضا ؟!» وكان معنى هذا أن شخصيته تتطلب زمنا أطول لفهمها وفك طلاسمها .. ولم يجهدوا أنفسهم معه أكثر من ذلك .. وتباعدوا عنه وهم يلقون عليه نظرات الفضول والتحير .. على حين إنغرست عيناه هو فى التحديق فى السماء الزرقاء .. الشديدة الصفاء .. كما لو كان يتطلع لرؤية فرع الشجرة الطيبة .!

- ٧ -

واستقبلته أمه فى البيت بالأحضان وهى تبكى وتسلمه مظروفا أصفر صغيرا .. تأمله وتحسسه وغمغم بقلق :

- يبدو أنه خطاب من إدارة الكلية ..

تمتمت موضحة من خلال عبراتها :

- وصل توا حتى أننى لم أعط وقتا لفضه كأنهم كانوا على علم بميعاد خروجك من المستشفى !..

وفض المظروف على عجل بأنامل ترتعش فرقا فقد توقع شرا.. وأخرج الورقة وقرأها فإذا هى كما توقع إنذار من الكلية بالفصل لبلوغه سن الثامنه والعشرين وأن عليه أن يحدد موقفه من التجنيد قبل إعادة قيده !

لم يمثل الإنذارفى حد ذاته مشكلة.. وإنما المشكلة كانت فى توقيته إذ أن بينه وبين إمتحان آخر العام - وهو عامه الأخير بالكلية - أسبوعا واحدا .. فهل يستطيع أن يلحق وقته ويؤجل تجنيده ولو أسبوعين يؤدى خلالهما الإمتحان أم أنه قضاء مبرم على مستقبله ؟ .. إن المشكلة تنتهى بحصوله على سند رسمى يفيد موافقة إدارة التجنيد فأنى له ذلك .. وفكر فى أنه بحاجة ماسة لمنجد - بعد الله سبحانه - يقنع المسئولين بهذا الإجراء الإستثنائى .. وهاله أن يسلمه تفكيره إلى حقيقة أنه بحاجة لما يشبه المعجزة فهؤلاء السادة الأفاضل يطبقون نظما ولوائح صارمة ولن يسهل إقناعهم وإن كان محظوظا فسيوافقون على الميدأ على أساس الحصول على مواقفة كتابية من أعلى سلطة بالجيش ! .. فأنى له أن يصل إلى إليها ؟ .. وفكر فى عميه ثم تراجع مخافة إضاعة الوقت الثمين المحدود فهما يقولان أكثر مما يفعلان ! وقرر أن يعتمد على - المعين الأول والآخر وحده - ثم على نفسه .. ونام - لدهشة أمه وفرحتها - بما آلت إليه ردود أفعاله النفسية من إتزان بعد أن

كان عجولا شديد القلق سهل التوتر ..نام قرير العين بعد أن ملأت حوباءه بأطايب الطعام الذى أعدته خصيصا له تعبيرا عن فرحتها العظمى بخروجه من المستشفى وإحتفالا .

وفى بكرة اليوم التالى صلى الفجر هذه المرة بالمسجد القريب تم حمل حقيبة صغيرة تحوى إحتياجاته الضرورية إستعدادا لأسوأ الإحتمالات وخرج بين دعوات وعبرات أمه وهويتحسس جيبه من الخارج ليطمئن على وجود الخطاب الذى سيعرض بموجبه مشكلته التى عليه ألا يغالى فيها ولو من قبيل التفاؤل الواجب بعد أن يؤدى الإختبارات المطلوبة منه والتى لاتستغرق أكثر من يوم .

وسارت الأمور كما أراد فى أعنتها - حسب التعبير الدارج - بعد أن أدى مع أقرانه الإختبارات المؤهلة بمعسكر الإستقبال واصبح يقينا أنه قد تم قبوله وأن عليه أن يلبس رداء الجندية المجيد وأخذ جميع أوضاع الإستعداد للترحيل إلى مركز تدريب الدفاع الجوى وهو السلاح الذى تم إلحاقه به .. آنئذ إستشعر أن الوقت قد « سرقه « وأن إجراءات التأهيل قد تسارعت وأن الخطر قد أحدق منذرا بإخفاقه فى العرض المجرد لمشكلته والحقيقة ان السبب فى ذلك يرجع إلى أنه توقع إجازة فاصلة قصيرة بين التأهيل والترحيل يخطف المجند فيها أنفاسه مع آله قبل أن ينخرط فى الحياة العسكرية الشاقة كما جرى العرف الذى إستقر فى وجدان المجندين الجدد لكن ماتوقعه هذه المرة لم يتحقق ويبدو ان الأمور هنا ايضا تسير فى غير صالحه حتما « يا إلهى « ! نعم فى الأمر شىء طالما أنه سيتم الترحيل مباشرة دون إجازة بالمخالفة لجميع الأعراف « إن عليه أن يسابق الزمن ويعرض مشكلته بأسرع مافى إمكانه .

وقد كان وخرج من الصف الذى أؤتمر به غيرآبه بالتحذيرات التى أطلقت عليه من ممسك الصف العريف الذى بح صوته من النداء عليه صائحا :

- مكانك ياعسكرى ! .. عد مكانك ياعسكرى .. عسكرى مجند عبده عد مكانك !

ولكن مكانك من .. هل يظن هذا الجاويش أننى فى غفلة هذا الممثل الكوميدى الشهير صاحب مجموعة الأفلام الضاحكة عن هذا الجندى الذى لا يدرى أحد إلى اليوم هل كان حقا « مغفلا « أو يسوق التغفيل لإضحاكنا .. إنى أعرف مكانى ولست بحاجة لمن مثلك أن يعرفنى !

وانطلق كالصاروخ نحومكتب قائد المعسكر .. الذى سبق له البحث عنه وعرف بالضبط موقعه .. وادخره لتلك اللحظة الحاسمة .. وكان هذا خروجا خطيرا عن العرف العسكرى وسرعان ماتم رصده وتحذيره بأن ينتبه لنفسه « الفوضى المنظمة « التى يعرفها فى « الملكية « لاوجود لها هنا .. إنه فى الجيش والنظام مختلف ! .. وأخذ حراس القائد أوضاع الإستعداد لردعه لو أنه لم يتوقف ممتثلا لأوامرهم وشهروا فى وجهه السلاح وثبتوه قسرا وأودعوه السجن الإنفرادى ريثما ينظر فى أمره الذى كان فى أعلى درجات الخطورة .. من يدرى .. ربما وراءه تنظيم سرى تخريبى ؟ .. هذا ماكان يجول بالأذهان وخاصة بين أفراد العسكر المتطوعين الذين إمتهنوا العسكرية كعمل ومصدر رزق .. إذ شق عليهم كثيرا أن يخالف جندى « طلبة وهى أدنى الرتب غير الرسمية « أوامر أحد زملائهم !.. أماهو فقد داخله سرور خفى لعلمه أن ثوب الخطورة الذى ألبسوه إياه سيعجل بالنظر فى أمره وسيتاح له دفاعا عن نفسه أن يعرض مشكلته.. وهذا وإن كان صحيحا لكن يبدو أن توقعه قد خذله للمرة الثانية وأن الأيام تمضى والفرصة توشك أن تضيع وأن عليه إن اراد السلامة لنفسه من الآن فصاعدا فعليه أن يغير طريقته فى التفكير فهذا المكان فعلا مختلف ويدار بطريقة أخرى غير التى يعرفها .. وضاعت محاولاته لإقناع صف الضباط المشرفون على السجن الذين كانوا جميعا من فئة المتطوعين سدى فلم يهتم أحد لمجرد سماعه ويبدو أنه توهم - من كثرة ما سمع عن صرامة أفراد هذه الفئة - أنهم حملوا له ضغينة كبرى لمخالفته أوامر زميل لهم أكثر من مخالفة النظام العسكرى الذى عرف عنهم شدة تمسكهم به .. وأنه أكثر من هذا إزدادت غضبتهم إشتياطا لماعلموا أن

الأمر يتعلق بخوفه من عدم تمكنه من أداء إمتحان السنة النهائية بالجامعة .. وكأن بين هؤلاء وبين خريجوا الجامعة حقد دفين يؤكد مايشاع عن مرارة حرمانهم من مواصلة التعليم العالى ! .. وبدا الأمر – كما توهم – أنهم تآمروا ضده واتفقوا فيما بينهم على حرمانه مثلهم !.. وأيقن أنه لامحالة ضائع لما تجاسر وفاتح العسكرى الذى أنيط به إحضار الطعام له فنصحه أن من صالحه أن يروض نفسه على قبول الأمر الواقع أوعلى حد قوله :

- طنش وابتسم وحاول تنسى !!

فأضمر أمرا وأخرج من جيبه شفرة موسى حلاقة بدلا من أن « يطنش ويبتسم « أو يحاول النسيان وقطع شرايين يديه وحين رأى الجندى منظر الدم ينبثق من معصميه ويتناثر عليه ملوثا وجهه وبزته العسكرية صرخ مستنجدا فجاءه زملاؤه من كل أرجاء السجن يستطلعون وأبلغوا القائد الذى أسرع على الفوربطلب الإسعاف وحملته السيارة إلى المستشفى العسكرى وكان قد فقد الوعى من فرط ما نزف

وحين إستفاق وجد نفسه واهن القوى يلتقط أنفاسه بضعف وصعوبة ولمح الأربطة على معصميه وحاول أن يعتدل من رقدته جالسا ليزعق :

- يا ناس .. يا هووه .. ورائى إمتحان ! .. أدركونى برحمة الله يرحمكم !

وفتح عينيه وأذنيه ملتمسا أحدا قد سمع .. فتحهما بشدة ليتأمل الوجه الجميل الذى ينظر إليه بإهتمام وابنسامة عريضة وهويحمل بين يديه طاقة ورد كلها صفراء من زهور تباع الشمس ! وتساءل غير مصدق :

- سيادة العميد .. ! .. يالرحمة الله .. أأنا فى حلم ؟!

- بل أنت فى علم يا بنى .. لقد عثروا على خطاب الكلية فى جيبك وتأكدوا من صدقك واتصلوا بنا ..

- سيادة العميد أنت بكل سلطانك وهيلمانك !

- ومع ذلك أنا .. لاتيأس .. الدنيا بخير .. أمة محمد بخير حتى تقوم الساعة .. !

هتف بداخله « ليتها تكون أفعالا ونبراسا لا كلاما مجردا ! « .. إنه إذن سيادة عميد الكلية جاء بناء على إستدعاء « عميد آخر « وهتف بداخله ثانية :
- شكرا لكل العمداء !
ونظر للعميد نظرة عرفان لاتمت بصلة لتلك النظرة التى رشقه بها يوم أبى ومن معه على منصة مدرج السينيما الإجابة على سؤاله البسيط الذى جرعليه كل تلك الأهوال والآلام وفتح عليه نار جهنم سخرية وتهكما وإرهابا من جميع أبناء الإنس والجن الذين تسلطوا بالفحيح خارج وداخل أذنيه .. واغرورقت عيناه بالدموع وغمغم وهو يرفع يد أستاذه الكبير إلى شفتيه ويلثمها :
- لو أنك أجبت سؤالى يوم تكريم الأوائل .. لأدركت حقيقة أبوتك للجميع ولى .. ولربما أشتممت إبان ذلك عبيرا لتباع الشمس عندما تحمله بين يديك وتهديه لى .. ربما .. من يدرى .. !

غنوة حب على المعبر

سباعية قصصية

الجزء الأول

هى لم تكن نشأتها برفح المصرية .. ولم تكن تتوقع يوما ما أن ينتهى بها الحال إلى الإقامة فى هذا البيت ذى الموقع الخطير فقد كان آخر بيوت الشارع المتعامد على خط السور الحدودى الفاصل تجاوره بيوت تقف شامخة مثله على رأس الشوارع الأخرى الموازية .. لكن وقفتها كانت على مبعدة .. ولذلك كان هذا البيت مهددا بالإزالة الإدارية من قبل الوحدة المحلية للمدينة .. ولقد طالما وقعت محاورات بين راعى البيت ..» خالها « وبين المسئولين عن التنظيم بالمجلس كانت تصل - أحيانا - إلى حد االتراشق بالألسنة والتشابك بالأيدى ولم تكن تنته إلا فى مركز الشرطة الذى كان - لحسن الطالع – يجاور البيت تماما فكان لآله عليه ما يشبه حقوق الجيرة ولذلك لم تتعد المشادات خط الوئام ولأن رجال المركز ضباطا وجنودا كانت تقع على عاتقهم مسئولية إضافية خاصة فى حراسة الحدود التى كانت شاغلهم الشاغل منذ وقعت معاهدة السلام بين مصر والدولة العبرية .

كانت عقدة المشكلة التى تغلى لها الدماء فى الرءوس هى توقيع بالعلم على قرار بالإزالة مزمع الصدورمن الوحدة المحلية له ولعدة بيوت أخرى تظاهره أو تتناثر حوله .. وقد إتحدت إرادة جميع اصحاب البيوت على رفضه رفضا قاطعا ..ولأن مجرد الرفض لاينفى العلم ولا يبعد عنهم شبح التهديد بان يستيقظوا من نومهم ذات صباح على جلجلة الجرافات والحفارات واقفة أمامهم منذرة الأهلين بالمغادرة فى خلال مدة زمنية وجيزة ومعهم ماخف وزنه وغلت قيمته من متاع بيوتهم .. فقد كان من الضرورى « إيكال محام للتعامل القانونى مع تلك الإدارة وإتخاذ ما يلزم من إجراءات تجعل ثبات هذه البيوت فى مواقعها لاتقل قوة ومنعة عن تلك الدشم والأبراج

الحصينة المنتشرة على مسافات منتظمة والتى يقف عليها جنود لايأبهون للصيف هجيرا ولا للشتاء زمهريرا آناء الليل وأطراف النهار فهى بيوت

قديمة موروثة عن الآباء والأجداد وهذا مايضاعف عزتها ويجعل من مشقة المقاضاة أمراهينا على أنفس المقيمين بها حاليا فهم ليسوا فى وطن محتل حتى تسيب تحت نير القوة الغاشمة روابط الحقوق ويطلب منهم الإذعان .. ولذلك لم يكن غريبا أن يدخل عليها « خالها « مكان جلوسها الأثير لديها فى بلكون الغرفة التى خصصت لإقامتها المستديمة والمطلة على بعد أمتار من السور قائلا وهو يربت على كتفها ليكفيها مئونة الوقوف إحتراما له :

- لم لاتتولين أنت أمر تلك القضية ؟.. ألست محامية ؟

أجابت :

- بلى يا خالى .. أنا مقيدة وتجاوزت فترة التمرين فى مكتب أحد المحامين بالإسماعيلية قبيل إنتقالى للإقامة معكم .. لكنى فى الحقيقة لم أزاول العمل بصفتى مستقلة بالدفاع وحدى !

- ولكنك تملكين العلم وخبرة على درجة تمكنك من مزاولة العمل .. نحن لسنا فى حاجة لمحام ضليع فحقنا واضح وثابت بقدر حاجتنا لمن نثق به .. وأنا أبلغك الآن قرارى وقرار بعض الجيران بإختيارك لهذه المهمة فاستعدى من اللحظة .. إننا هنا فى بلدنا والدنيا ليست سائبة .. وفيما نعلم البلد فيها قانون ونظام يكفل حقوق الجميع ! إستعدى غدا نصحو من النجمة ! ..

وتركها ومضى دون أن ينتظر سماع كلمة منها تعبر عن قبولها النهوض بأمر الإعتراض المزمع تقديمه لإبطال قرار الهدم والإزالة الإدارى وهو فى مهده .. وهى على أية حال لم تشغل نفسها فهى مجموعة إجراءات إدارية بسيطة تتم مع اللجنة المعنية بنظر منازعات الإسكان لاترقى إلى مستوى القضية التى إحتمال رفعها أمام المحكمة وارد فيما بعد وكل ماعليها أن تصحو من نومها فى بكرة الصياح لترتب الأوراق والتوكيلات التى سيتعين عليها تقديمها بمقر اللجنة الكائن بديوان المحافظة بمدينة العريش القريبة والتى سيصاحبها إليها خالها طبعا فى سيارته « الربع نقل « ذات الكابين المزدوج التى يستخدمها فى تنقلاته وعائلته ويعتمد عليها فى كسب رزقه بالسوق

فهى مجهزة وأهم من ذلك مرخصة لنقل الأفراد والبضائع ذات الحمولة الخفيفة فى ذات الوقت ..

لكن عليها الآن أن تفكر .. بقى لها جالسة أكثر من ساعتين فى البلكون تطالع ما يجرى أمامها على الناحية الأخرى من الوطن الآخروالذى لتكرار مشاهده يوميا أصبح روتيتا عاديا .. فإن الأمور من الناحية الأمنية

تشهد هدوءا عصبيا على هذا الحد الفاصل مما يسمونه مجازا الحدود فعلى الجانبين تتقطع فروع لأصول أشجارعائلات واحدة تتشوف ليوم التلاق .. وليس ثمة ما يعكر الصفو إلاظهور مجموعات كبيرة او صغيرة

بين الفينة والأخرى تتظاهر مستعجلة هذا اليوم معبرة عن غضبها من إغلاق المعبر ومن الحصار الذى يضرب العدو وأشياعه على القطاع والوطن المحتل بصفة عامة والتى تعتبر مدينة « رفح « الفلسطينية على الناحية الأخرى من السور إحدى توابعه .. ليكن هذا شأن من تثيره سخونة تلك الأحداث التى تغلى مياهها أحيانا إلى درجة التناوش بين المتظاهرين وبين الجند الموكلين بأمر الحدود ولكن عليها أن تجد أولا وقبل كل شىء إجابة لهذا السؤال الزاعق الذى راج فى ذهنها لما بدأت التفكير وهو « لماذا تأحر عن موعده ؟! « ..

تابع .....

الجزء الثانى

وكيف لها ألاتجد الإجابة وهى تعرف - خير المعرفة – ظروف موطنه المقطع الأوصال بالأسلاك الشائكة والحواجز والبوابات ؟

إن قدرها قد قيض لها أن « تحب « شابا من وطن آخر كانت تجمعهما « زمالة الدراسة « فى كلية الحقوق بجامعة « قناة السويس وقد كان الشاب الفلسطينى الوحيد الذى يدرس معها فى نفس الصف الدراسى وأتيح له ذلك لأن أمه مصرية ولأن الأسرة - بما فيها الأب الفلسطينى – كانت تقيم بالإسماعيلية قبل أن تنتقل للإقامة فى موطن الأب بإحدى قرى الضفة الغربية لظروف عائلية تطلبت عودة الأب تاركينه فى رعاية

« خاله « هو الآخر حتى إنتهى من دراسته ولحق بهم .

وهى عندما رأته أول مرة وكان يزاملها فى نفس « المجموعة الدراسية « التى ينقسم إليها الصف إلى مجموعات لتنظيم الدراسات العملية والميدانية لم تكن تتخيل أن ترتبط به إلى هذا الحد..؟! لقد جذبها إليه بقوة

وأسرها وكأن به « مغناطيس « ولم يكن به إلا بساطة شخصيته وتلقائيته ودماثة خلقه وذلك الغور العميق الحزين فى عينيه الذى خمنت أنه يرجع لمحنة وطنه فقد كان ينوء بحمل همومه إلى لاحد فضلا عن صفاته الأخرى التى ربطت بينهما والتى لاتدرى لها حدودا !

كانت تعيش فى كنف عمها الذى كفلها بعد وفاة والديها إثر حادث مرورى أليم ولذلك إفتقدت القدوة والتربية الطبيعية وحنان الأبوة والأمومة معا فنما وترعرع هذا الحب فى غيبة كل عوامل التوجيه وعلى الرغم من أنها كانت فتاة ملتزمة وعاقلة بيد أن هذا لم يمنع إستشعارها راحة باطنيةعميقة فى تلك « النقلة « الكبيرة لمحل إقامتها إلى آخر نقطة جغرافية على الحدود حتى تكون على مقربة قدر الإمكان منه !

ولكن هاهو القلق الشديد يعاودها .. لقد كان موعدهما السابعة من

صبيحة السبت الأول من كل شهر فماذا جرى هذا الشهر ؟!
مضى على هذا الموعد الشديد الأهمية أكثر من ساعتين دون أن يظهر فى بلكون البيت المقابل على الناحية الأخرى والذى له عين ظروف بيتهم ! مع إختلاف بسيط وغير جوهرى هو أنه مملوك لأحد أعمامه لا أخواله كما هى حالها !
إن معه رقم تليفونها المحمول فلماذا لم يمنحها إتصالا أو « رنة « حتى ؟! لعله تعرض لمكروه !
وما أكثرما يتعرض له الناس فى هذا الوطن السليب ...
وقد يكون فى وضع لايقدر معه الإتصال بها ...
واضطربت أعصابها وتوفزت ووجب فؤادها بالقلق والخوف لدرجة أنها سمعت دقاته واضطرت لمغادرة « البلكون « ودخول الغرفة لتدفن أسباب توترها وجزعها فى النوم أو فى الإنشغال بأى أمر آخر من أمور نفسها أو معاونة « زوجة خالها فى الشئون المنزلية الى لاتنتهى وسوف تتكفل أريحية ورقة طباع تلك المرأة الطيبة المصابة بداء القلب - مما يلزمها بواجب إنسانى وأخلاقى حيالها - فى إغراق مخاوفها وهواجسها فى بحيرة النسيان فضلا عن أن الشمس قد بدأت فى غمر البلكون بأشعة الضحى الحارة وكان عليها أن تفر منها .
ومر صباح اليوم التالى إلى الظهيرة بسرعة لأنها إنشغلت فى إجراءات تقديم « الإعتراض « الإدارى مع خالها الذى صاحبها إلى مدينة العريش وعندما فرغت عاد السؤال الممض يطاردها ثانية « ياترى ماذا حدث له ؟ « إبان عودتهما وهى تطالع من خلال نافذة السيارة - على مدى الشوف - تلال من الرمال الصفراء ومن خلفها جبال من مياه البحر الشديدة الزرقة وجذوع أشجار النخيل الباسقة ذات الأيادى المشرعة الخضراء التى تشبه المآذن علواوتضرعا كما لو كانت تشاطرها أحزانها داعية الخالق سبحانه أن يغدق من المزن فيضا من البركة والخير تملأ القلوب حبا ورحمة بما يمكن « حبيبها « من

الإتصال بها ! نعم فلابد أن وراء غموض موقفه داع من غلظة وقسوة !
وما بلغت المنزل وكان ذلك بعد صلاة الظهر التى أدياها فى الطريق فى أحد المساجد التى تتخلل حدائق التين والزيتون والنخيل حتى هرعت إلى غرفتها ودلفت إلى البلكون دون أن تضع حقيبتها أو تتخفف من ملابس العمل الرسمية متلهفة لرؤياه فرأته وكادت الحقيبة أن تسقط من بين أناملها التى تراخت فرحا وهى تعتمد بمرفقيها على السور لتديم اليه النظر !
كان جالسا فالبلكون المقابل على بعد أمتار قليلة ومع ذلك شعرت أن بينهما مئات الأمتار لرغبتها العارمة فى معرفة أخباره ومع أنه كان يمكنهما تبادل الحديث غير أنهما حاذرا ذلك وإكتفيا فى البداية بحديث الإشارة لنقل هذا الشعور بالبهجة والسرور الذى كان غالبا ما يجعل الدماء تتدفق فى شرايينهما لدرجة كانت تلتمع فيها عيناه وتتورد لها خدودها فيما مضى من الزمن الجميل وزمالة الكلية !
ثم لم تدر ماذا عساه قد وقع حتى ترتد فجأة إلى الخلف وتسرع بالإنسحاب داخل الغرفة وموارية باب البلكون ألى درجة دعتها لتتمكن من تمام رؤياه إلى النظر من خلال فرجات « الشيش « !هنيهة ثم أعادت فتح
الضلفتين على وسعهما وكأنها إقتنعت أو أقنعت نفسها بزوال الخطر الموهوم ولوحت له بذراعيها غير مكتفية بذراع واحدة ! محيية أو معبرة عما يجيش بصدرها من عواطف ومشاعر متناقضة ثم مالبثت أن تذكرت الهاتف « المحمول « وهما يقتاتان من بعضهما النظر من تلك المسافة فإلتقطت الخط وبادرته متسائلة :
- لماذا تأخرت عن موعدك .. ومتى جئت ؟
أجابها فى تباسط ودعة :
- لا .. لاشىء ..كنت أعاون أبى فى إدارة شئون مزرعته التى ورثها عن جدى .. أتعرفين إن فلاحة الأرض عمل جميل وأنا نادم لأننى لم أدخل كلية الزراعة
غمغمت مداعبة :

- عندئذ .. كنت ستتعرف على فتاة أخرى .. آه أيها الخائن !.. كلكم هكذا يا رجال وإن إختلفت أجناسكم !

سكت لحظة كأنه يتردد فى أن يبوح لها بسرثم فاجأها قائلا :

- سامحينى ياحبيبتى .. إنضممت إلى فصيل فدائى !

- هاقد دخلت كلية الزراعة !

- لاتخافى على .. أنا سأتقدم لخطبتك قريبا ..

هتفت وهى تتراقص فى مكانها خلف «الشيش « من الفرح :

- مرحبا بالمجموعة الفدائية إن كانت قد حفزتك لتنفيذ تلك الفكرة الجميلة وإن كانت ستجىء معك ..

وأطلقت زفرة حرى كأنها تنفث عن آلام البشرية بأسرها ولا تدرى سبب هذا الحزن العميق الذى ألقاها فى حبائله وتمتمت متسائلة بلهجة وانية ضعيفة وعلى إستحياء أو على غير ثقة :

- متى .. ؟

- بمجرد فتح المعبر ..

- إذن سننتظر موافقة واتفاق الطرفين على التهدئة والهدنة التى.. آه .. قد لايتم إتفاق مطلقا أو يتم بصورة أفضل منها عدمه ! وننتظر طوال عمرنا .. لشد ما أنا فى شوق إلى رؤيتك عن قرب !

تابع .....

الجزء الثالث

- نستطيع ذلك بإستعمال نظارة معظمة !
- نعم .. ولكن قد يسترعى تبادلنا النظر بالنظارات إنتباه عسكر الحدود على الجانبين فيظنون بنا الظنون ونروح فى « شربة ميه « !
قهقه متسائلا بصوت متقطع :
- شربة ميه ؟!
- قد عشت مدة طويلة فى مصر .. ألم تسمع هذه التعبيرات ؟!
- سمعتها .. أعرفها جيدا لدرجة أننى لم أعد أعرفها ! ..
كان المرح لايزال عالقا فى نبراته ثم دون مقدمات تغيرت هذه النبرات فى سمعها وتهدجت وهو يواصل قائلا :
- لأننا هنا نمارسها حياة .. كل يوم .. فالموت سهل واعتاد الناس عليه ولم يعد يخيفهم .. ماذا يقولون فى وصفه ؟ حالة سفر من حياة إلى حياة .. ومن عالم إلى عالم .. ويستوى الأمر إن كنت رضيعا أو شابا أو شيخا طاعنا فى السن !
- لماذا تتحدث هكذا حزينا ؟ .. غدا يفتحون المعبر .. !
- فقط لمرور الحالات الإنسانية العاجلة التى تحتاج إلى رعاية طبية لاتتوفر عندنا مع الحصار الذى ..
وبغتة عاد إليه مرحه دون سبب وأردف يغنى :
- أختى .. جاوز الظالمون المدى .. !
وتجاوبت معه وهدفها المحافظة عاى مرحه أطول وقت ممكن فأكملت مغنية بدورها مقطع الأنشودة :
- فحق الفداء وحق الفدى !
وكالطعنة النجلاء فى صميم رجائها جاءها صوته محزونا فيما يشبه الإحتجاج :

- إلى متى .. إلى متى طوق السجن الذى تجاوز حدود المدن والقرى والطرق والشوارع إلى البيوت فوق الأرض وتحت الأرض !
- وما النهاية ؟
- النهاية أن القول « بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة « قول حى صادق وخالد ! عن أذنك مؤقتا .. عمى يناديني للغداء .. نفسى أتغدى معك !
إنتهزت الفرصة وأرادت أن يكون للحديث نهاية سعيدة فتظرفت قائلة :
- حسنا .. ما عليك إلا أن تقفز فوق السور محاولا العبور وإن أمسكوا بتلابيبك قل كنت ألبى دعوة للغداء !
وخيل إليها أن كلماته إنسابت فى أذنيها ضعيفة بقوله :
- لست بحاجة للقفز !
وهو يقهقه على الجانب الأخر وبصوت التليفون يغلق إبان تلويحه لها مبتعدا :
ومضت على تلك المحادثة بضعة أسابيع وقعت خلالها أحداث جمة على الجانبين فقد تزايدت وتيرة المطلب الفلسطينى الشعبى والرسمى شدة لفتح المعبر والإطاحة بحالة الحصار التى بعانى منها الأهل على الجانب الآخر الويلات المتمثلة فى نقص الغذاء والدواء والوقود التى تصل ذروتها المأساوية فى المستشفيات التى تزايدت فيها حالات وفاة مرضى القلب والأطفال المبتسرين وحديثى الولادة التى لاتستغى لحظة واحدة عن التيار الكهربى لتشغيل أجهزه ألتنفس والتغذية وتنقية الدم وتنشيط الأعضاء فضلا عن المضادات الحيوية ..
وبلغت هذه الأحداث فى بعض الأحيان حد الخطر بضغط أعداد كثيفة من المتظاهرين على بوابات المعبر أو بالتناوش بأسلحة خفيفة - وغالبا بدائية- تطلق طلقات أو حصى فى الهواء ! او بمحاولة فتح ثغرة فى السياج الخرسانى الفاصل بإستعمال مادة متفجرة .
واشتدت حالة الحصار إلى درجة أنذرت بإنفجار سكانى فقد بدأ الشعب

الشقيق يعانى من الجوع ودفع بمظاهرة نسائية على المعبر كان من نتيجتها إستجابة الشقيق المصرى فلم يحكم رتاج البوابات ولم يقاوم الأيدى الرقيقة التى عالجت فتحها وإندفعت أمواج من البشر من الجانبين على حد سواء .. جانب كل همه أن يشترى كل ما يقع فى أيديه من مواد أساسية وغير أساسية ! وجانب كل همه بيع كل ما له قيمة تذكر ! .. وفى هذا الخضم المتلاحم تاه هؤلاء الذين كانوا ينشدون لقاء أحبائهم وذوى قرباهم - الذين طال فراقهم - من الأصدقاء والأهل والعائلات المشتركة بين الشعبين الشقيقين .

وصرح الرئيس المصرى بأنه لن يسمح بتجويع الفلسطينيين مما كان له بالغ الأثر فى نفوس الموالين له والممالئين ونفذ بهذا السهم بنسبة مائة فى المائة فى أفئدة المحبين والمغلولين !

وتوقعت « منى « أن يكون السهم الكيوبيدى المصرى قد إخترق فؤاد الحبيب الذى يدعى أنه ليست به حاجة للوثب من فوق السور كتلاميذ المدارس ! للوفاء بوعده لخطبتها ومعه والده وعمه وكل أقربائه فهذه فرصة ثمينة لن تعوض إن ضاعت .. وعبثا حاولت الإتصال به لأن تليفونه كان مغلقا على الدوام ولا تدرى السبب .

وإنقضت بضعة أيام والمعبر مفتوح على وسعه يسمح بدخول وخروج كل ما يمكن تخيله من بضائع وبشر من الشعبين اللذين أصبحا شعبا واحدا فى تلك البقعة المحدودة من الوطن الحبيب الأكبر !

وجاء أوان أعلنت فيه السلطات من الجانبين أن هناك حاجة للتنظيم وإعمال الإتفاقات وأن الفتح العشوائى ليس أسلوبا أمثل لتبادل المنافع والعواطف .. ومن ثم إنعقدت إرادة الحكماء على إعادة إغلاق المعبرعلى أن

يفتح فيما بعد بتنظيم يدحض حجج العدو الذى إستشعر بأن أهدافه من إحكام الحصار والتجويع وصولا للتركيع قد تزلزلت وتوشك على الإنهيار فثارت حفيظته وأطلق كل أبواقه منددا فتنبه نجم العالم المتحضر وأرسل إنتقاداته وسفرائه !

وهكذا تحدد موعد نهائى لعودة كل من عبر وإستوفى حاجته قبل موعد الإغلاق وانتاب المحبة المعذبة مايشبه اليأس وهى تنظر من البلكون إلى الجموع الفلسطينية الذين قدرت أعدادهم بمئات الآلاف يروحون ويجيئون دون مانع ومع ذلك لم يكلف الحبيب المجهول الذى لاتعرف عنه أكثر من أنه يعاون أبيه فى الزراعة وفى ذات الوقت يشارك الشباب من جيله فى المقاومة ولعل هذا يفسر سر إغلاقه تليفونه المحمول بصفة دائمة منذ غادر « البلكون « ليتغدى مع عمه .. فهى لم تسمعه أو تره من لحظتها .. ولا تعرف متى بارح الديار عائدا إلى بلدته ولا متى يعود وما العذر الشديد القوى الذى حاله دونها وبوابات المعبرمفتوحة على مصاريعها ! وهمهمت لنفسها أنه إن فوت فرصة الساعات الباقية على إغلاق المعبر ولم يحضر فستقاطعه نهائيا ولن تشغل نفسها بأمره وستركز على مهمة الدفاع عن تراث الآباء والأجداد المتمثل فى تلك البيوت التى تروم التوجهات الحذرة هدمها لدواع عديدة وربما إستجابة لمطالب العدو الذى يدعى أن هناك أنفاق تحت أرضيتها تفضى إلى الجانب الآخر ويتم من خلالها تهريب الأسلحة والرجال وعلى الرغم من المداهمات المفاجئة للتفتيش التى تعتمد على أحدث أجهزة البحث والتنقيب لإبطال تلك الحجج وعلى الرغم من أنه كان كثيرا مايشترك طرف محايد فى تلك العملية التى لم يكن العدو يقصد بها إلا إضعاف الشعور
الوطنى والقومى وإلا تكريس معاهداته التى يخشى- ببصيرته ذات الطبيعة القلقة - أن يجىء يوم تتحول فيه - مع غياب العدالة الدولية وإعتماد نهج الكيل بمكيالين من القوى الكبرى الذى يميل فيه ميزانها المختل لصالحه على الدوام - إلى حبر على ورق !
وهى وإن كانت متأكدة أن الإدعاءات الكاذبة لم يبق أمامها من مجال للبحث عن الأنفاق إلا فى دواليب الملابس وحقائب السيدات! فهى لاتستطيع أن تستبعد إمكانية ذلك فى جيوب سراويل خالها التى لاحصر لها ولاعد! والتى

كثيرا ماتختلط عند « الكواء « الماكر عمدا مع سراويل الجيران وبالذات أصحاب البيوت التى عليها أعين الهدم لسبب لاتعلمه !
ولذلك فكرت هل من حقها أن تفند تلك البيوت بنفسها لتتطمئن ؟!
إنها تعتقد أن من حقها ذلك طالما وكلها أهلوها وحدها فى الدفاع عنها .. لكى يطمئن قلبها - كما قال سيدنا أبراهيم لربه عندما سأله البرهان على عظيم قدرته - على الأقل حتى لاتفاجأ يوما بأنها متهمة ينسب إليها الإشتراك فى عمل يوصف من قبل العدو وعالمه المتحضر» بالإرهابى « لإرهابها ومن على شاكلتها !
- سأفاتح خالى فى ذلك الأمر .. نعم .. نعم !
.....
- سأجعل تحققى بنفسى من بـراءة البيوت مما هى متهمة به شرطا لإستمرارى فى مهمة الدفاع عنها .. أجل .. أجل !
.....
- ولكن .. ألا يجىء هذا الحبيب ويضع حدا للشكوك والهواجس ؟! آ ه لو أنه فتح محموله فقط تلك المرة حتى أعرف أخباره !
.....
- ويبررلى عدم إهتباله تلك الفرصة التى قد لاتتكرر لتحقيق أمانينا والوفاء بوعده .. ألا يعلم أن وعد الحر دين ؟! .. إن الوفاء من أجمل الفضائل .. أألا يكون وفيا ؟! بقى من الزمن بضع ساعات .. ففى منتصف الليل .. ليل تلك الليلة الليلاء .. سيغلقون بوابات المعبر .. والشمس .. الشمس الوفية.. ! توشك على المبيت فى خدرها بين أحبائها من الكواكب .. أفلا يأتى هذا الحبيب ؟!

تابع ..

الجزء الرابع

بالطبع رفض خالها محادثة الجيران فيما طلبته منه - كمبدأ - لحساسية الموضوع ..أو على حد قوله « ولأنه ليس مقبولا التطفل على حريات وحرمات الناس.. وخصوصا البيوت فيما تعلم سيادة المحامية .. كما أنه ليس من الإنسانية ولامن الدين تقطيع أوصال الأسر والعائلات وأفراد العائلة الواحدة - إن فرضنا أن هناك سراديب خفية أو سحرية تحت البيوت تستعصى على أجهزة البحث الحديثة ولاتستعصى علىالأستاذة منى !- تسمح لسكان رفح المصرية بلقاء أقاربهم من سكان رفح الفلسطينية ونقطع أرحاما أمر الله أن توصل « ثم سألها فى نهاية مقالته الرافضة وهو يحدق فيها بنظرة ثاقبة تشى بأمارات علمه خاص تحرص بكل قواها على إخفائه :

- ماذا يدعوك لأن تفكرى فى هذا الأمر البعيد يا إبنتى والأساطير والحكاوى حول هذه الأنفاق تحاك على القهاوى فى كل بلدان الجوار والتى مصدرها فى الأساس .. العدو الذى يأبى أن يقاوم إحتلاله لفلسطين أحد لأنه يعتبره إستقلالا وتحريرا- لهذه الأرض اليهودية - من براثن الفلسطينيين الذين إغتصبوها آلاف السنين !

وصمت هنيهة تفرسها إبانها بتلك النظرة المقلقة التتنفذ إلى الأعماق ثم أردف بهدوء وتركيز :

- الأنفاق هنا أو هناك ليست فى باطن الأرض فحسب إنها من الكثرة بحيث إعتلت باطن النفوس أيضا ! فهى فى أعماق كل عربى وتصل الأواشج الباطنة بشرايين من حديد ! وهذه حقيقة فعلية وليست من قبيل الكلام أو الخطب بل وهذا سر خوفهم المغالى فيه لأنه يعنى أن رفض التطبيع – الذى يعنى الحياة أوالموت بالسبة لهم - يأتى من الشعوب لا من الحكومات !.. ثم ألا يكفيك أن بيتك بيت خالك خال من هذه البعابع تحت الأرض وأننى وغيرى من الجيران لا نمارس أية أنشطة مثيرة للخوف الذ لاوجود له إلا فى وجدان

وخيال العدو الذى يحلم بمانع مائى وخط حصين آخر على الحدود بين سيناء وغزة على جدى خط بارليف
الذى كان على طول قناة السويس والذى قد لاتعرفين أن العدو كان يتباهى به لدرجة إعلانه أنه غير قابل للإقتحام أو الهدم ولو إستعان المصريون بأعتى القنابل الذرية فإذا به ينهار طولا وعرضا فى ست ساعات يوم ٦ أكتوبر بخراطيم المياه التى أستعملت فى تحويل مجرى النيل عند بناء « السد العالى « ! وربما هذا أحد أسباب كراهتهم لهذا السد وتهديد أحد متطرفيهم له بين وقت وآخر !
وسكت وقتا طويلا كأنما يأخذ إستراحة كافية من المجهود الى بذله فى إعادة تصوير الحقائق التاريخية لإبنة شقيقته التى ظن أن حداثة سنها منعتها من الإلمام بها وهى معلومات مكررة ومعادة لكل الأجيال غيرأن الخال الطيب كان له رأيا آخر ربما يتمشى مع عنوان لكى لاننسى !
وفكرت هى فى مصارحته بأمر زميل الدراسة بكلية الحقوق - بكل خطوطه المنيعة فى قلبها - وأوشك لسانها أن يزل مصرحة بأن ما فكرت به وأثار حفيظته إنما يرمز إلى ماإنتوته من قطيعة قررت بها أن تسد باب الحبيب الذى أهمل وصالها والوفاء بوعده ! ولم يبق على إغلاق المعبرغير ست ساعات تتآكل بسرعة جنونية !
بيد أنها تداركت نفسها وأجابته قائلة :
- بخصوص سؤالك يا خالى عما دعانى للتفكير بغرابة هكذا لأفتش بنفسى البيوت ..
قاطعها دون قصد ليظهر لها إهتمامه مهمهما :
- آه .. أى نعم .. آه أى نعم .. !
فواصلت هى متسائلة ونظراتها تخترق الفضاء الذى يفصل بيتهم عن المعبر ويتجاوزه إلى أبعد من ذلك :
ألست معى فى أنه إن أكتشف يوما ممارسة تهريب الأسلحة والأفراد المقاومين

عبر نفق تحت أرضية أحد البيوت التى أدافع عنها فسينسب إلى الإشتراك فى النشاط الذى تسميه خيالا !؟

- أأنا أسميته هكذا..؟! ليكن كنت أقصد هؤلاء الذين قذف الله فى قلوبهم الرعب .. ثم إن إفترضنا جدلا ذلك وهو أمر أكرر أنه ثبت لديهم عدم صدقه لكنهم لايريدون أن نكف عن الحديث عنه لأسباب أخرى أقول أنه يحق لك أن تفخرى بنفسك يابنيتى آنذاك لأنك تمارسين عملا جهاديا يرفع درجتك عند الله !

- هذه فعلا هى القضية التى تشغل بالى فأنا لا أريد أن أخسر عملا صالحا يقربنى إلى الله سبحانه فهو يبلونى ليعلم إن كنت صادقة فى إيمانى أو كاذبة ولكن ...

- ماذا ؟

ترددت أكثر فعاجلها مشجعا بنظرة عطف أبوى فقد كان يعلم ماتفكر فيه وهى لا تعلم أنه يعلم ! فاسترسلت قائلة دفعة واحدة :

- هناك شاب ...

وفاجأها بقوله فى حماسة زائدة مبتسما ومتخابثا :

- أعرفه .. !

فارتدت للوراء خطوة لم تدر إن كانت بقدميها أو بمشاعرها وكأنها خافت سخريته أوتوبيخه وتلعثمت ولم تفه بجملة مفيدة :

- أنا .. هو .. كنا .. كان !

فتزايدت إبتسامته وأصبحت كمية الخبث فيها أمرا لايحتمل عندما تمتم :

- تقصدين فادى !

حدقت فيه بدهشة دون أن تنبس أو تريم فاستطرد وهو يربت على ظهرها بحدب ليطيب خواطرها :

- لاشىء يخصك يخفى على والدك حبيبك يا حبيبتى .. أنا أعرف « خرم الإبرة « فى المدينة فكيف لا أعرفك !.. وأؤكد لك ألا صحة لما تفكرين فيه ..!

- ماذا تعنى .. فادى ؟
- أقصد هذه العفاريت تحت البيوت .. هل هو الذى حادثك بشأنها ؟
- مطلقا يا خالى !
نكس رأسه على صدره فيما يشبه الأسى والأسف وتمتم :
- آه .. ها أنتذا تقولينها خالى وتكفين عن كلمة بابا التى أحبها !
وطفرت من عينه دمعة حار كيف يداريها فماكان منها إلا أن إرتمت على صدره وأنشأت تبكى باحتراق كان يعلم سببه ! .. لقد مس وترا حساسا فى نفسها مما دفعه للقول متحاشيا بكل حيلة ألا يبدو جدليا أو مدعيا :
- أؤكد لك أن الحصار الذى يضربه العدوعلى أهلنا فى غزة وكل فلسطين وعلى إرادة كل الشعوب العربية.. محض خيال !
- كيف .. ونقص الأدوية والوقود والتجويع وتدمير البيوت والمنشآت والفتك بالمدنيين العزل دون تفرقة بين عجوز أو شيخ أو رضيع !
- إنتظرى ما أقول لاتكونى رعناء ! ..إن المحاصر الحقيقى هو العدو من بحر العروبة ! والذى إن لم يكن الخطر به موجودا فهو يبحث عنه ليحرك سطحه الآسن ! ليحيط به نفسه فهو لايحيا إلابالخوف الذى يجعل أفراده قوة مترابطة فضلا عن المكاسب التى تنهال عليه من كافة دول العالم فى صورة معونات وأسلحة و إتفاقات دفاع مشترك !
وسكت لحظة يلتقط ماهرب من أنفاسه تحت ضغط غضبته التى لم تدرك أسبابها الدفينة فى نفس خالها الذى لم ينل حظا وافرا من التعليم يؤهله أن يكون بتلك الدرجة العالية من الوعى السياسى والوطنى وأردف :
- اتعرفين البحر سطحه آسن حقا لكن باطنه أمواج متلاطمة تتسلل وتتصل ببعضها وبالشعب الفلسطينى لاعبر أنفاقه كما يتصور .. بل بخاصية تشبه ما يعرفه ويدرسه المهندسون فى علوم المياه وهى خاصة بالضغط والإنتقال وركوب قطرات المياه حبات الطين أو الرمل متنقلة تحت الأرض وصانعة بحرا جوفيا .. وفى حالتنا هذه البحر الجوفى هو طلائع الشعب التى أقسمت

أن تتحرر من الأسر وتعود للبحر !! .. أتعرفيته ؟!
سألها هاتفا فأسرعت تقل موضحة :
- بالطبع أعرفه وإزددت معرفة به منك .. أنت الآخر بحر يا والدى ولم أكن أعلم أنك تعرف خرم الإبرة على الأرض فى السياسة وحب الوطن أيضا إلا الآن !
- وخرم السنارة فى البحر .. والله أعرفه ! .. على كل لا تزعلى .. إنما كنت أسألك لأطمئن !
وتركها ومضى لحال سبيله لتغرق فى أفكارها السود وشعورها بخيبة الأمل والفشل فى « الحب « ! ولكن هاهو يطلبها فى الهاتف المحمول .. إنها تعرف نغمة رنته التى خصصتها له.. وإندفعت الى موضع الهاتف الدائم على» التسريحة وإلتقطت الجهاز الصغير وفتحت الخط لتسمع صوته الحبيب ..

تابع ....

الجزء الخامس

الذى أوحشها كثيرا وطويلايردد فى تدفق وتلقائية تشى بصدق عواطفه :
- أنا فى ظروف ومكان ليس مسموحا لى أن أبوح لك بمعلومات عنه .. أدرك جيدا ما يدور بخلدك .. وإجاباتى هى ..لا تغضبى .. لا ترتابى .. لاتحزنى .. لا تخافى ! .. وطنى ليس حرا وأنا مثله ...
- تأكد أننى أعرف ذلك !.. حب الوطن فرض عليك وطالما هو أسير فى قبضة من لا يرحم فهو فوق كل حب !.. معك حق .. معك حق !
- لهجتك فيها نغمة عذاب ! سامحينى حبيبتى .. أدع الله لى .. أنا ومجموعتى نحاول كشباب وأبناء رأب الصدع الذى إنقسم له الوطن ..وفى ذات الوقت هناك عملية خلف السور قد أفوز فيها بالشهادة وأراك فى الجنة !
وابكاها صوته المتهدج إنفعالا بما يحمله لها بين حناياه من حب ووجد وما صرح به من إقدام وشيك على عملية جهادية .. حبه الأول الذى يؤدى إلى حبه الثانى وأردف :
- إننا نحارب عدوا محتلا لامثيل لبجاحته فى التاريخ .. تصورى يدعى أنه يحرر وطنه من إحتلالنا له ويقاتل دفاعا عن حقه وسلامة أراضيه ومواطنيه.. ! والمشكلة أنه نجح فى إقناع هؤلاء الذين يعاونونه ويشعرون تجاهه بعقدة ذنب خلفتها مآسى الحرب العالمية الثانية أنها حرب تحرير ضد الإرهاب فهم يباركون إبادته لنا وسكوتهم على المجازر التى يرتكبها العدو يوميا يجعلنا نشك فى أنهم يعترفون لنا بحق الحياة !
كانت هذه الكلمات التى تدفقت كالسيل هى آخر ما سمعته منه عبر الهاتف الذى أغلق دون وداع فتوهمت أنه إنما أغلق قسرا مما أثار جزعها أن يكون قد وقع له مكروها لسماعها دوى إنفجارات وإطلاق رصاص من رشاشات قبيل إنقطاع صوت إتصاله ومضت ثلاثة أشهرلايعلم غيرالله كيف قضتها دون أن تسمع مايبدد مخاوفها ودون أن تعرف مصيره ولولا خبر سار

عن نجاح فى العمل بعد التعاسة ف الحب - حيث صدر قرار اللجنة المعنية بنظر الطعن بإلغاء قرار إزالة البيوت لأنها رمز من رموز التاريخ والتراث وهى فوق ذلك فى صحة جيدة ولو كانت حقيقة مايدعيه العدو فليقم بإغلاق الأنفاق

على الناحية الأخرى على حد تعبير أعلى سلطة فى الدولة !

- هذا إنتصار لسيادة القانون .. نحن حقا بلد فيها قانون !

- بارك الله فيك يا إبنتى !

- وهذا دليل على أن للشعب ثوابت قومية لايتخلى عنها تحت ضغط من أحد أو إبتزاز يشهر سلاحه طرف أصبح كل همه حصد المكاسب السهلة من الغير لئلا يتهم بالمشاركة فى الإرهاب !

- إن الشعب يرفض التطبيع وهذا هو مايهدد الدولة الى أنبتها الشيطان والتى بدأت بشائر زوالها تظهر !

- ودليل على شطارتك يا إبنتى وتمكنك من عملك أيضا كمحامية .. وفى الواقع ..

- آ ه لو أننى أعرف فقط ماذا وقع له !!

نطقت بها دون أن تعى مقاطعة مما دفع الخال للتساؤل مستوضحا ما تعنيه بلهجة جادة :

- تقولين ماذا ؟!

وإنتبهت لنفسها على لهجته المتحفزة فأدركت أنها تفوهت بشىء لايليق أو لم يسمعه جيدا.. فأسرعت تغمغم فى مدارة وكأنها تجاريه فحسب :

- أقول أنه قرار تاريخى سيسجل فى التاريخ بأحرف من نور !

قالتها والأحرف فى داخل قلبها تآكلت من طول ما كتبت بالدم الأحمر القانى كلاما آكلا عن مصير من إرتبطت به للأبد !

وما كان لخفقان هذا القلب المأكول الذى عصفت به الهواجس وهذا الحزن الدفين الذى يرسم خطوطه هالات سود تحت أجفانها ليخفى على

فطنة خالها وبالطبع زوجته .. قد كانا يعلمان سر قضائها الساعات الطوال فى البلكون وعيناها تركزان النظر على بلكون البيت المقابل متظاهرة بالإنشغال فى الإطلاع على ملفات القضايا التى إنهالت عليها من كل حدب بعد أن ذاع صيتها وصارت من حيث لاتحتسب محامية ضليعة يسعى إليها آل المدينة فى القضايا المدنية التى تمس ممتلكاتهم .. وكانت هى تعرف مقدار نفسها فلم تنجرف وراء تيار رزق الشهرة الذى من الله به عليها .. فكانت تقبل القدرالذى يناسب مفدرتها على الحركة كما وخبرتها نوعا فزاد هذا من نجاحاتها ومن تقدير الناس لها وفسروا ذلك بأنها محام صادق مع نفسه لايسعى وراء المادة فقط بقدر ما يسعى لإحقاق الحق وإسعاد القوم !

- وأنا من يسعدنى ؟!

جال السؤال الغريب والصعيب برأسها فجاءتها الإجابة سراعا من داخلها ووجدت لسان حالها يردد :

- هذا يتوقف على مفهوم السعادة عندى .. قد قرأت رأيا يقول انها مجموع لحظات الرضى .. !

وخيل إليها أنها سمعت صوتا يصعد من تحت البلكون يناجى فيما يشبه الغناء وكأنها محض مصادفة :

- لحظة رضا لله .. !

فهرعت إلى السور وأطلت وحدقت فلم تر أحدا وأطلقت من صدرها زفرة حارة لتخفف عنه وطأة توترها وشعورها المؤلم بالوحدة ثم إرتدت لمكان جلوسها بالغرفة على حافة السرير ووضعت ساقا على ساق واعتمدت براحة يدها على جانب وجهها وهى تعالج ثانية إيجاد إجابة شافية للسؤال المقلق وهالها أن يعاود الصوت صعوده إلى أذنيها منشدا :

- عطار وجراح للأرض يا صامدين قولوا لمن يضم المهد

هيا نداوى .. جراح فلسطين ونعصر الأمل فى فم الغد

وران سكون عميق أخاذ للحظة أو « فيمتو لحظة « قبل أن تتناهى إلى

سمعها جلبة أصوات عديدة متداخلة هيىء لها أنها تصدر عن جمع كبير من الناس على الناحية الأخرى من السور ثم أظلمت الدنيا بغتة وكأن الغمام قد كسا وجه السماء .. وأطبق عين السكون كرة أخرى لكن هذه المرة لوقت أطول وكأن أصحاب الأصوات قد نزلت بهم نازلة أخذت بخناقهم قبل أن يقطع السكون أصوات من نوع آخر تعالت فى السماء .. أصوات تغريد ضخمة .. وهطعت إلى البلكون ثانية وعيناها على السماء لاتبرحانها لحظة حتى كادت أن تصطدم بالسور وهى مأخوذة وغير مصدقة لما تراه عيناها فالغمام كان ل ..سرب ؟ لا وليست مجموعة أسراب محدودة العدد .. لنقل قبيلة أو شعب عن بكرة أبيه من طيور غريبة لم تر لها مثيلا من قبل ولاتعرف لها أول من آخر ترف بأجنحتها المتباينة التى يغلب عليها اللونين الأصفر والأخضر فتثير فى الجو أنساما ندية سجساجة كأنها مروحيات معلقة أتى بها الله - سبحانه - لتهوية سخونة ماتجمع فى الصدور - وفى الأرض - فى تلك البقعة غير المستقرة الحساسة على الحدود وفى ذات الوقت تشنف الآذان بأعذب الألحان وهى تزقو وترنم بآية من آيات تسبيح الله وتساءلت منى لتغالب الجزع الذى ألم بها عما يدفع الناس للجرى من كل حدب وصوب تجاه سور المعبر مكبرين ومهللين للطيور التى صنعت بثباتها فوق المعبر ما يوحى بأنها فى إجتماع قمة للتباحث بشأنه ! وهل يتركونه على حاله أم يلقون عليه حجارة من سجيل ! وبغتة هدأت الطيور وسكنت تماما وترامى إلى الأسماع على هذا الجانب أصوات تردد على الجانب الآخر :

- أنظروا الطيور .. طيورالجنة أتت تودع الطفل الشهيد ! الله أكبر .. الله أكبر !

من مكان يبدو بعيدا أو مخفيا وراء سلسلة من البيوت الرابضة كأنها الأسود فى العرين تترقب فى هدوء - ملوك الغابة التى نعايشها - مع الأهلين فى النوافذ والشرفات جنازة برزت على حين غرة يحمل

روادها أعلاما يطغى فيها اللون الأخضر على ما عداه من ألوان تماما كأنها

أعلام الطيور..لكن علم فلسطين الذى تتجمع فيه كل الألوان بنظام متسق كان أغلب خصوصا تلك التى كانت تتدلى من الشرفات والنوافذ ومشربيات عدد غيرقليل من المنازل الأثرية القديمة المتخلفة من الزمن الذى أسموه بالجميل لأنه كان عامرا بالتآخى وأخلاق الشهامة الشعبية ! ودنا موكب الجنازة كثيرا من السور وبدا بجلاء أنه

يقصده وأن القوم أزمعوا أمرا جللا فتصدى لهم الجنود فى التو على الجانبين وارتفعت أسنة البنادق والهراوات واتقدت الأعين وانقدح الشرر وبدأت نذر الخطر تفلت من عقالها .. وإسنطاعت منى أن تتبين عبر السور بعض الأصولت الغاضبة تندد بالوضع وتطالب بالعبور للمشاركة فى دفن طفل مصرى الجنسية بجانب أبيه المدفون بمقابر العائلة المنقسمة بين « الرفحين « والذى قصفت عنقه حيث كان يلهو فى الشارع بعد عودته من زيارة قبر أمه إحدى شظايا المقذوفات - غير الذكية - التى تطلق من الطائرات التى تطارد المدنيين العزل وبالأخص الأطفال والشيوخ والنساء أكثر مما تطارد أفراد المقاومة

وبكت منى لما ترى وتسمع .. بكت بإحتراق لم تتذوق مرراته قبلا حتى أظلمت عيناها هذه المرة وسقطت مغشيا عليها .

وحينما إستيقظت ألفت نفسها على الفراش غارقة فى العرق كأنها كانت محمومة أو خاضت غمار معركة شرسة ورأت زوجة خالها جالسة إلى جوارها وهى تميل عليها وتلثمها وتربت على جوانب كتفيها

لتطيب خواطرها من أمر شديد .. وخالها واقف قبالتها بمحياه الطيب ولحيته البيضاء وعيناه تلتمعان بدمعة تترقرق وتأبى أن تسقط !

- لاتتحركى .. إستريحى .. الدكتور أوصانا بذلك

- الدكتور ؟

تمتمت متسائلة بضعف وإستغراب لما سمعته وإرتسمت فى عينيها علامة إستفهام كبرى لأمر حدسه خالها فأسرع يقص عليها بقية قصة الجنازة فى

إيجاز مراعيا حالتها فإذا بالأمر ينتهى بتسليم وتسلم تم لجسمان الطفل بين أفراد العائلة المشتركة من الشعبين الشقيقين وأن الطيورلاحقته وراحت تصدح وتترنم كأنها تتلو آى الذكر الحكيم بلغتها وتزايدت أعداد الطيور بصورة أخافت منها المشيعين فعجلو تنفيذ مراسم دفنه وبمجرد أن تمت إنقشعت لطيور فى لحظة وكأنها تبخرت وتحجرت أعين الناس فى المآقى تتنازعهم مشاعر الإيمان والعجب فى آن ثم ما لبث أن تصاعد فى المآذن آذان فهرع الجمبع للصلاة وهم صاغرون !

تابع .....

الجزء السادس

ونامت وهى تتساءل هى الأخرى فى سريرتها :

- ما الحل ؟!

فجاءتها الإجابة فى المنام على لسان قائد فرقة الموسيقات العسكرية التى تظفر دوما بكأس العالم فى المسابقة الدولية وهو يخاطبها قائلا :

- منطقة حرة .. تجارية وصناعية فى رفح على غرار منطقة بورسعيد !

كان يقف وظهره إليها - فى الحلم - على مسرح السماء الفضية الزرقاء والقمر بدر فوق المعبر ببزته الرسمية أمام أفراد الفرقة الموسيقية العملاقة التى لم تكن تعزف كالعهد بها - فى مصر - ألحان وأغان وطنية بل كانت تعزف « غنوة حب « عندما أوقف الفرقة بعصاه واستدار إليها فرأته وسمعته بوضوح من خلال الزجاج الشفاف للضلفتين الداخليتين لباب الشرفة ينهى حديثه قائلا بصوت وقور رصين :

- منطقة مفتوحة أمام الفلسطينيين والعالم أجمع من كل الجهات.. إلا الجهة المتصلة بالأرض المصرية من الناحية العكسية..فعليها بوابات تفتيش وجمارك ..مع الإبقاء طبعا على بوابات المعبر الحالية رمزا للحدود وللتفتيش العسكرى !

ثم ادار لها ظهره ثانية وأشار بعصاه للفرقة لتواصل العزف فعزفت مقطوعة « لحن الوفاء «! ثم السلام الوطنى الفلسطينى ..فالمصرى..! وعند هذا الحد توقفت الفرقة وإنقشعت وقائدها ولكن حلمها البديع لم يتوقف وألفت نفسها فى بكرة الصباح تصحو لتردد فى بشر وأمل :

- حلم جميل .. صباح جميل !

وهبت من الفراش نشطة وراحت تتراقص وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال كالفراشة فقد نامت الليل بطوله قريرة العين والآن تشعر أن صدرها - لسبب ما – قد إبترد وفؤادها قد هدأ .. ودخلت عليها زوجة خالها وهى

على تلك الحال من البهجة ففرحت وهتفت :
- ما شاء الله يا منى .. يا لله ماذا أرى قوام ملكة جمال !.. كل شيء جميل هذا الصباح يا حبيبتى !
وإنخرطت تثرثر معها فى أحاديث شتى فاكتشفت أن خالها لم يسرد عليها قصة تسليم جثة الطفل التى دارت على المعبر كاملة فإن الأهل على الناحية الأخرى وبقية المشيعين أصروا أن يدخلوا ولو عنوة من بوابة المعبر للمشاركة فى الجنازة وأداء واجب العزاء لفرع العائلة المصرى وعلى الرغم من ذلك أبى الجنود على جانبى المعبر مجرد الإصغاء إلى رجائهم وهددوا بإستعمال القوة بل وبدأوا يجهزون خراطيم المياه كبداية صغيرة لتفريق المشيعين الذين تحولوا إلى متظاهرين .
وقررت منى فى الحلم الذى إتصل بعد تفكير عميق أن تفاتح بعد أوبتها من عملها بالمحكمة رئيس المجلس المحلى الشعبى للمدينة فى أمر تطويرها وتنميتها بفتح حدودها الدولية وتحويلها الى منطقة تجارة وصناعة حرة بدلا من كل هذه المواجهات مع سكان البيوت المطلة على المعبر لإزالتها ..وللقضاء قضاء مبرما على مرامى العدو الحقيقية من إطلاق شائعات الأنفاق تحت الأرض والبيوت ! وإستشعرت وهى تقرر هذا أن عقلها قد تحرر من خوانس الأفكار فإن المقترح سيحقق مرادها من « الحبيب « ! وفى ذات الوقت سينتشل الروح المصرية من « مزنق « الوقوف غير المتعمد مع العدو فى خندق واحد ضد الشقيق الذى يعى تماما أن القاعدة أن أى حدود فى العالم تكون مقفلة والفتح إستثناء يخضع لقانون دولى معمول به فى كل أرجاء المعمورة بغض النظر عن إملاءات معاهدة السلام !
ولكن النائب المحترم رئيس المجلس المحلى الشعبى راوغها بكل براعة بعد ظهيرة اليوم - فى الحلم – عندما مرت عليه وفاتحته فى الأمر قائلا :
- إن إتفاق الفصائل الفلسطينية وتصالحها أسهل !
ولما كان عليها ان تراوغه بدورها لتقنعه أن هذا الحل أفضل وأوقع لأنه

حتى مع توافق وتضافر الجهود الفلسطينية تصبح الحاجة ماسة لآلية ثابتة ومستمرة تضمن إمداد سكان « غزة « بإحتياجاتهم من المؤن الغذائية والدوائية ووقود تشغيل السيارات والـورش الصناعية ومحطات توليد الكهرباء وطرد وتنقية مياه الصرف الصحى وخلافه من الحاجات الأولية والتنموية العمرانية بعد إنسحاب العدو من القطاع وفى الحقيقة هربه من حمل غزة الثقيل على كاهله المرتعد الفرائص من المقاومة !

- ثم إن هذا كفيل بإنتشال مصر من الحرج الذى زجها فيه العدو الخبيث فهو يعلم أنها لن تقبل أى وضع متفجر على حدودها سواء من العدو أو الشقيق !

قالت ذلك فدمدم الرجل وهو يتهيأ للإنصراف لينهى الحديث الذى أثار ضيقه :

- هذه فكرة غير صائبة .. وستحقق أهداف العدو بعيدة المدى فى سيناء !

فعاجلته بصوت علا فجأة عن عمد منها ليسمعه الدانى والقاصى من الحضور الذين كانوا يراقبون عن كثب الحديث المثير :

- بل هذا هو الحل البديل المأمون والمعقول لدور كان يقوم به العدو المنسحب ولابد لمصر أن تنهض به كقدر ولكن دون أن تضطر للتدخل فى إدارة شئون القطاع وفيه رجاله !.. منطقة حرة تجارية .. ثم صناعية فيما بعد .. هذا هو الحل الأمثل يا سيد !

وتعمدت أن تطلق عبارتها الأخيرة بصوت جهير ثم غادرت المكان وهى تصيح :

- الأمثل .. الأمثل !

وجاء خالها وزوجته فأيقظاها من نومها ظنا منهما أنها تعانى كابوسا وأغرقاها بمشاعر العطف والرغبة فى التطامن إلى صحتها وإستغربت هى أن يكون كل ما كانت فيه مجرد حلم لدرجة أنها لم تكف عن الثرثرة والقول بأنها تركت الرجل وأتباعه مشدوهين فعلا - لاحلما – من جرأتها فى إعلان أطروحتها

ومنطقها المتعمق والمحيط فى العرض والإقناع ...
- أكل هذا مجرد حلم ؟!
ثم حمدت الله بعد أن فكرت قليلا أنه كان مجرد حلم لأنهم لو خبروا سر قلبها - الذى لم يكن وحده المحرك – لكان لهم رأيا آخر ولربما فضحوا سرها فى الآفاق لمحقها مع إدعاء أنه وحده المحرك لكل هذه الوطنية الزائفة !
ثم قصت على خالها ماحدث فى الحلم بالتفصيل فأومأ قائلا بجدية بالغة :
- أتركى لى الأمر وسأعرف كيف أقنع جميع أعضاء المجلس .. لإتخاذ توصية وتصعيدها حتف أنف رئيسهم .. فهم جميعا أصحابى !
وبالطبع مرر أنامله على شعرها وجانب محياها وأوصاها من ناحية أخرى « ألا تحزن ! « فتبسمت له ودفنت رأسها فى صدره الحنون كأنها تبحث عن أمها .. أو عن مثوى أخير لأحزانها .

تابع الجزء السابع والأخير .

الجزء السابع

فى بكرة اليوم التالى دلفت إلى الشرفة - كعادتها هذه الأيام - بمجرد إستيقاظها من النوم لتتفقد الشرفة الأخرى « لعل وعسى « وفى ذات الوقت تنشق عبير الصباح وتملأ رئتيها من النسيم العليل الذى يسرى سجسجا نديا فوقع بصرها على منظر إرتدت له للوراء ذعرا ودهشا فإن بوابات المعبر على الجانبين كانتا غارقتين والسور على إمتداده لايكاد يبين لما حط عليه من الطيور الخضراء التى تكاد خوافى أجنحتها أن تتوهج من شدة نورانيتها ! وقد إنقسمت - تنظيميا - إلى فريقين .. كل فى مواجهة حراس الحدود على الجانب الذى أنيط به وظهره للآخر ! ولاحظت أن الحراس قد تراجعوا للخلف بضعة أمتار ولعلهم بنفس شعورها مع إختلاف بسيط هو أن أسلحتهم كانت مشهرة صوب الطيور فى وضع الإستعداد للدفاع عن النفس مما ينذر لو إنطلقت الذخيرة بوقوع كارثة كبرى فالرصاص - غير الذكى – لن يفرق بين الطيور و بين ما خلفها من بنى آدم سواء إن كانوا جندا أو إناسا عاديين عالقين على هذا الجانب الفلسطينى فى إنتظار فتح البوابات للعبور إلى منفذ إتصالهم الوحيد بالعالم الخارجى من الجرحى والمرضى الذين هم فى أمس الحاجة لرعاية خاصة وكذا الطلاب والمرتبطين عموما بأعمال أو أنشطة فى خارج القطاع الذى حوله العدو الماكر إلى سجن كبير وحشد به كل أسباب الموت أو الخنوع لإرادته ! .. أوعلى الجانب الآخر المصرى الذى وفد عليه لفيف من الناس لا يجمعهم غير الفضول والتطلع إلى الطيور التى تطير البعض منها واصفا إياها بالأرواح الشريرة التى حشدها الغرب بإنفلونزا الخراب والضغائن ! لبث الوقيعة بين الشعبين الشقيقين .. وعلى العكس من ذلك هلل لها البعض زاعما أنها وفد من طيور الجنة « الأبرار « جاء يؤاذر ويبشر الشهداء من المدنيين العزل لاسيما الأطفال والرضع الذين تغتالهم طائرات العدو ودباباته يوميا بلا رحمة .. بدليل تلك السحابة التى أظلت الطفل

الشهيد ومشيعيه أمس حتى مثواه الأخير !.. ومنهم من كانت له نظرة تاريخية ! إستحضر بها الطير الأبابيل « جند الله « الذين رموا الملك الحبشى « أبرهة « وجيوشه من البشر والفيله بحجارة من سجيل ! لتكون تذكرة لمن يخشى ومن قست قلوبهم وتحجرت وأعرضت عن ذكر الله والرحمة بالضعفاء من مخلوقاته فى عصر زهت فيه الأقمار الصناعية والمعلوماتية !!
تصبب العرق منها جزعا وهى تتراجع للوراء واحتبست صرخة إستغاثة فى حلقها فخرجت وانية مكتومة مما تراه عيناها اللتان إنغرستا فيما وقعتا عليه من الهول والغرابة ! ولاك لسانها كلمات غير مفهومة عن الحلم الفظيع الذى تواصلت فصوله على حين غرة ثانية وعما تمثله تلك الطيور ...
- ربما هى أرواح الشهداء فعلا !
جاءتها تلك الإجابة من الخلف قبل أن تنهار ساقيها ولا تقويان على حملها لحظة سارع صاحب الصوت اللماح فأمسك بها من تحت إبطيها ليبقيها واقفة على قدميها فأدارت له وجها إمتقع وعينين كابيتين وغمغمت فى إلتجاء وعرفان :
- خالى .. جئت كعادتك فى اللحظة المناسبة لتنقذنى من الهول ومن نفسى !
على حين إستطرد هو مكملا وكأنه يقضى بأمر مفروغ منه :
- إنها على الوعد الصادق جاءت تطالب بإستحقاقات الشهادة !
- وماهى إستحقاقات الشهادة ؟ .. أليست الجنة التى هم فيها أحياء يرزقون أجابها وكأنه أعد الإجابة سلفا أو يقرأ من كتاب مفتوح وهو يسترق النظر للطيور الساكنة من طرف عينه :
- الجنة جائزة الشهادة وهى من الله .. أما الإستحقاقات فمن البشر الذين يجب ألا يضيعوا تضحيتهم !.. أنظرى إليها .. أعنى الطيور .. تأملى هذا المعنى الحزين فى الأعين التى تلتمع الدموع فى مآقيها !.. إنها تتوسل إلينا فى نبل الصمت وسكونه أن نقدر التضحية التى بذلها الشهداء من أجلنا أن نعتصم بحبل الله جميعا ولا نتفرق فتذهب ريحنا ويتمكن العدو من تحقيق مآربه

وتركيعنا ! وأن نواصل السير على دربهم حتى لاتذهب تضحيتهم هباء !
- مستحيل ياخالى .. كل هذا قرأته فى هذا المعنى الحزين فى الأعين المغرورقة بالدموع !
- طبعا ياحبيبتى .. إنهم فى جنة الخلد فرحون بما آتاهم ربهم من فضله ولكن يعكر صفوهم أمرنا .. قد إنسحب العدو من غزه حقا .. وهاهو يوقع إتفاقا للتهدئة .. وها هو المعبر يوشك أن ينفتح على مصاريعه ! ..ولكن لكى يواصل إنسحابه من الضفة والقدس الشرقية لابد أن نفهم جميعا .. أن التهدئة تبدو عتبة السلام ! .. ولابد أن يقف الجميع على العتبة ولو على سبيل التجربة وإلتقاط الأنفاس.. سواء فى غزة أو الضفة !
- أما والله !.. كل هذا قراته فى أعين الطيور !
- وأعينك انت أيضا أيتها العفريتة ! .. هيا .. أخبرينى ما آخر أخبار طائرك .. ألم يحط على البلكون بعد ؟!
وعلى حين غرة إنقشعت الطيور وكأنها لم تكن موجودة على السور أو كأن لها قائدا غير مرئى فى أجواز الفضاء يأتمرون بأمره وهلل القوم على جانبى المعبر ورفعوا عقيرتهم بالهتاف :
- الله أكبر !
وصاح رجل أتى يهرول من باطن المدينة على الناحية الأخرى وهو يرفع أذرعه لأعلى صانعا علامة النصر :
- إسرائيل فتحت المعابر !
فارتفعت وتيرة التهليل والتكبير والتصايح ودق الأيدى فرحا وسروراعلى جانبى المعبر على حد سواء بنداء :
- الله اكبر !
وتدافعوا إلى بوابات المعبر يبغون فتحها عنوة فتصدى لهم الجند على الجانبين حتى لاينفلق جدار المنعة والحصانة بين الأشقاء وينهار وهو أمر تحذرنا طيور الشهداء من وقوعه ولعلهم ما كانوا هنا منذ قليل إلا للحيلولة

دونه .. !
وساد هرج ومرج شديدين على المعبر لكن الأمور لم تعد أبدا إلى ماكانت عليه إذ حسمت خراطيم المياه الأمر وسمحت السلطات على الجانبين بدخول الجرحى والمرضى وذوى الإحتياجات الإنسانية العاجلة كمرحلة أولى .
ومضى النهار طويلا وثقيلا على منى وهى تفكر فى فادى وتتساءل للمرة المائة عما يكون قد حدث له حتى تنقطع أخباره .. إنقطاعا تاما .. وكادت أن تفقد الأمل فى رؤيته ثانية والإطمئنان عليه .. وهجس فى صدرها هاجس صور لها أن آله فى البيت المقابل يعلمون سر وقوفها الطويل فى البلكون تحدق فى إتجاه بيتهم ! فنقلت برج مراقبتها إلى داخل الحجرة بحيث ترى من خلال أضلاف الباب كل ماعساه يظهرهنالك دون ان يراها احد !
وفى المساء دخل عليها خالها وضبطها متلبسة بالتلصص فأحرج الدماء فى وجنتيها فهربت ونكست رأسهاعلى صدرها وتجاهل هو الأمر وتمتم مبادرا فى حدب شديد تهدج له صوته :
- عندى لك خبر مفرح ..
عادت الدماء إلى وجنتيها وتهللت أساريرها وتساءلت :
- هل قرروا فتح المنطقة الحرة .. ؟!
هز رأسه بالنفى وهو يتخابث بعينيه مداعبا فعاودت السؤال على إستحياء وكأنها حدست ما يعنى :
- عن فادى ؟!
- نعم .. هو قادم الليلة ومعه والده وعمه !
لم تصدق أذنيها .. هبت من جلستها واقفة وكل خلجة من خلجاتها .. كل خلية من خلاياها .. كل قطرة دم تتراقص وتتدافع إلى مراكز حساسة فى عينيها وخدودها وشفتيها .. ولم تتمالك نفسها وارتمت على صدر خالها الأموى الحنون تنهنه وتنشج نشيجا حبيسا ومنطلقا فى آن واحد مما جعل صدرها يعلو ويهبط منتفضا وقد إرتفعت حرارته وتفصد العرق منه غزيرا..

ولم يتحمل الخال الوالد فأبعدها عنه برفق
وبقدر كبير من الشفقة واسترسل قائلا وهو يربت على ظهرها بكلتى يديه :
- سيقرأون معى فاتحتك الليلة !
عادت إلى صدره لتدارى فرحتها العارمة التى لاتحتمل وفى ذات الوقت تدارى خدودا إتقدت بالحمرة من فؤاد يضخ الدماء فى حبور لأعلى ويوشك على القفز من قفصه ! وتساءلت بهدوء ودعة :
- لم تقل لى يا خالى العزيز ؟ !
- ماذا ؟
- كيف سيعبرون والمعبر أعيد غلقه ؟
أبعدها عن صدره حانقا هذه المرة وجمجم :
- يا منى .. يا منى ! .. ألم أقل لك مرارا وتكرارا أن المعابر على سطح الأرض لا أهمية لها .. وأن المعابر الحقيقية تقع تحت سطح الجلد !!
نطق بها فى توفز وعصبية وواصل وكأنه لا يعى لما يقول :
- نعم نحن لسنا فى حاجة لمعابر يراقبها العدو وأنصاره من خلال إتفافات دولية يعتبرها هذا العدو حبرا على ورق ونتمسك بها نحن ! ورجالات وكبراء العرب يعون تلك الحقيقة جيدا و أغلبهم يترك الأمور تجرى فى أعنتها .. فالشعوب تتواصل وتتعاون وتساعد بعضها على طريقتها .. والليلة سيأتون لخطبتك .. !
تساءلت فى عجب :
- كبراء العرب ؟!
فتجاهل سؤالها الذى ينم عن إصرارغريب على عدم التصديق لطول ما عانته واكتفى بإمرار أنامله خلال شعرها ثم أعادها ثانية إلى أمان صدره ومسح على هذا الشعر براحة يده برقة وحنان ليساعدها على تجاوز محنتها ويخرجها بسلام من غفلتها ونظراته تتدافع من خلال زجاج البلكون ثانية إلى اللانهائية الممتدة بعرض صفحة السماء السوداء المرصعة بالنجوم اللئلاءة

وتمتم وكأنه قرر أن يجيب سؤالها فيما يشبه الغناء :
- هيا نداوى جراح فلسطين ونعصر الأمل فى فم الغد
لا تستقبلوهم دمى أو محتضرين فآخر وردة لم تمت بعد .
- أقسم أننى سمعت هذا الصوت الجميل من قبل ..آه ..! مرحى .. أهو أنت يا خالى .. أين كنت لم أرك عندما أطللت من البلكون ؟!
- فى مكان آمن ؟
- كيف ..؟
- خلف المعبر !
فغرت فاها دهشا وأردف هو وعيناه تنظران إلى بعيد من خلال باب الشرفة كأنما يخاطب شخوصا لا يراها غيره بصوت جهورى زاعق :
يا أعلام العرب .. افتحوا كل البوابات المعترف بها .. فى الأرض والبحر والسماء .. سيل الأخوة عرمرم ! .. طيور المحبة عائدة .. منطقة حرة تعنى تحرير الأقصى .. وعودة التائه واللاجىء والمنفى لديار آبائه وأجداده ..

نوبة صحيان يا بروجى

اهاجت الذكرى لواعج نفسه وهو يتسمع - وكله آذان صاغية - الى صوت الانغام ينساب من راديو الجيران والمطرب الشهير يغنى» وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها « اذ تخايلت له - وسط النهار - صورة شقيقه الاكبر الذى خرج مع رفاق سلاحه الى سيناء ولم يعد منذ ذلك الاثنين الحزين الخامس من يونيه عام ٦٧ .....

ايامها كان الحزن شأنا عاما يجثم على صدر كل ارض فى كل بلد وكانت الآيات الكريمة « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولاتحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين « يتردد صداها فى كل عطفة وناحية وبيت وتصل الى سمع والده الذى ماسرع ان خشع وسلم امره - لصاحب الامر - بعد ان افتقد اسمه فى جميع السجلات فى كل الوحدات الطبية وفى جميع المستشفيات العسكرية اشهر طويلة ولما اعياه البحث « عد مفقوددا « ولعله كان من هؤلاء الاسرى الذين هرستهم جنازير الدبابات - وهم احياء - لتك الوحدة المسماة « شاكيد « والتى اماط اللثام عنها وكشفها قائد تلك ا لوحدة منذ أشهر قليلة فى كتابه « روح شاكيد « وهو يعترف ويتفاخر بما انجز فى ايامه المجيدة !! .

ليل طويل «وجت « القلوب خلاله حنينا الى استرجاع الارض وطلوع ذلك النهار الذى كان ضياءه فى اشتداد مستمر مما اقلق - كما جرت العادة التاريخية - العدو الماكر الذى كان يدرك ان من طبيعة الاضواء الشديدة المبهرة ان تخطف الابصار برهة قبل ان تعود -لهذه الابصار - الرؤية المعتادة فاهتبل هذه الفرصة السانحة فى برهة « العمى المؤقت « تلك ووثب بطائراته ودباباته ومدرعاته و» نشل» نصرا غير مستحق لاننا عندما عاد الينا البصر وجدنا كل شئ محطما امامنا وحولنا واسميناها نكسة لاننا لم نعترف بالهزيمة لاول وهلة !

وهكذا انطوى الاب على فؤاده الحزين المكلوم وهو يردد لنفسه تلك الآيات ويزيد عليها بالآية التى تقول « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون « ثم ان الليل لم يطل اذ سرعان ما استحال ظلامه نهارا وابتسم الاب وهو يسمع اخبار ذلك الموقع فى ابعد نقطة شمال غرب سيناء على الضفة الشرقية للقناة امام بورسعيد المسمى « راس العش « ! والذى ظل محررا طوال سنوات الاحتلال وباءت جميع محاولات العدو لاقتتحامه بالفشل الذريع وذاق مرارة الاخفاق والخذلان واحس معدن المقاتل المصرى عندما تتاح له فرصة النزال المتكافئ ! ثم اتسعت هذه الابتسامة كثيرا مع غرق المدمرة «ايلات « بصواريخ لنشات البحرية المصرية فازاح النهار الليل وقعد مكانه عامين كاملين فى حرب استنزاف لقوى العدو الذى تكبد خسائر فادحة فى العتاد والبشر الى ان ضج بها وعرض التفاوض للسلام فكانت مبا درة وزير الخارجية الامريكى «وليم روجرز « التى لم تكن الا خدعة لكسب الوقت اراد بها العدو ان يرخى الليل سدوله تماما وان تسرى البرودة خدرا فى اعصاب ودماء العزم المصرى المتحفز للنصر واستعادة سيناء الحبيبة الى آخر شبر .....

ايامها كان مايزال طا لبا يشق طريقه للتخرج الى ان تم له ذلك فى يوم الاثنين الخامس من يونيه عام ٧٣. الذى شهد اهم حدث شخصى فى حياته بحصوله على بكالوريوس الهندسة فى مجال « الالكترونيات « من جامعة المنصورة وبحصوله فى اكتوبر من نفس العام على شهادة اخرى فى هندسة الدفاع عن القاعدة الجوية فى منطقة « شاوة « جنوب شرق المنصورة التى كان مجندا بها عندما اسقط طائرة قا ذفة ومقاتلة للعدو الذى كان يهاجم القاعدة بضراوة.ويطير على ارتفاعات منخفضة ليتفادى اجهزة «الرادار « من ان تكتشفه وبالتالى وسائل الدفاع الجوى .....

كان يجلس يومها على مقعد منصة اطلاق صواريخ سام٣ المضادة للطائرات ولما واتته اشارة بان طائرة تتجه نحوه جالت بخياله على الفورصورة شقيقه

المفقود وتذكر بقوة وشدة والده الذى ينتظر سماع اخبار ثأره وانتصاره على احر من ا لجمر وكان على مقعد اخر الى جانبه مدفع مضاد للطائرات فترك مكان جلوسه بسرعة البرق الى هذا المقعد وكانه « استخسر « الصاروخ فى الطائرة وقرر اسقاطها بقذيفة مدفع عا دى ! و اضطجع على المقعد فى وضع « التنشين « وعيناه فى مركز دائرة تدميرها قبل ان تعلو فى اجواز الفضاء راكبة الموقع لاسقاط حمولتها من المتفجرات فتدمرهما معا وكانت لحظة فارقة بين الحياة والموت اصابت الطائرة فى مقتـل فهوت كالبطة وقـفز طيارها بالمظلة وهبط فى الحقول خلف المطار لتتلـقـفه ايدى المزارعين بلهفة !

آه .. ما اشد عذوبة الذكرى .. وماأطعم مذاق النصر والقصاص ! فى تلك اللحظة وقائد القاعدة الجوية يحتفل به وسط اقرانه ويقلده نوط الواجب...! حقا ماأجملها ذكرى استولت على حياته فـدخل عرينها وقبع به يأ بى ان يبرحه الى مشاركة وطنية اخرى فى وقت السلم ! انه اذن الابن الذى عاد لابيه يوم تسريحه من الخدمة العسكرية بعد نحو عام ومعه وسام النصر وشهادة القـدوة الحسنة !

وان ينس لاينسى ابتسامة الاب العريضة المحبوبة التى يفتر فيها ثغره مضيئا فيخال انه يرى منارة ثغرالاسكندرية تلك التى صارت حلما فى خيال الحالمين من المؤرخين ! عندما سأ له وهو يجالسه مغـدقا عليه دفْ وحنان الابوة وحزمها فى ذات الوقت متسائلا :

_ أين بطاقتك ؟ ....

اخرج له بطاقته « الشخصية « فهز الاب راسه علامة على انه لم يفهمه واعاد سؤاله :

_ اقصد بطاقتك الانتخابية .. اين هى ؟!

اجابه وهوينظر الى الارض كمن ارتكب ذنبا فى حق معلمه وبلهجة الاعتراف :

_ لم اقيد اسمى بعد فى جداول الانتخابات !

وحدجه الأب بنظرة فاحصة مستنكرة لم ولن ينساها ما حيا ابدا.. لأن الأب إنتقل إلى جوار ربه بعد ذلك بأيام وكأنه كان ينتظر خروجه من الجندية ليوصيه تلك الوصية ويرحل..!..ولذلك قرعزم الإبن على قيد اسمه في جداول الانتخابات ويستخرج تلك البطاقة تحقيقا لرغبة ووصية الأب الذي كان ينطوي على فكر عال وبصر ثاقب يرى ما لا يراه الإبن الذي ظل يحاول استجماع إملود عزمه كلما فتحت وزارة الداخلية الأبواب في أشهر ثلاثة إبتداء من ديسمبر من كل عام.. دون أن يتحقق له ذلك..

وكانت زوجته التي أنجبت منه ابنا وحيدا غادرهم وهاجر إلى دولة أوروبية وتزوج من أجنبية.. تعمل لهذه الأشهر الثلاثة كل عام ألف حساب.فهي الأشهر التى يضطرب فيها حال الزوج وينفرط عقده..!..أوقل تتجمع عقدته..!..فيفقد قدرته على ضبط نفسه وأعصابه وتراه مشوشا و مهملا شئون نفسه فتنبري إليه وتحثه على إستخراج تلك البطاقة إن أراد أن يعمل في نفسه وفيها معروفا..!..أما هو فكان كلما خرج قاصدا قسم الشرطة لهذا الغرض يعود قبل أن يبلغ أبوابه لأسباب لا تدري تلك الزوجة المسكينة من أين واتته قريحته للإعتداد بها ونسبها لنفسه فهي لم تكن أسبابا شخصية تخصه دون غيره..وفي البداية كان ذلك نهاية عام ١٩٧٤تعلل بأنه قرأ في عناوين الصحف وهو في طريقه نحو قسم الشرطة أن ذلك الرأسمالي اليوناني الملياردير «أوناسيس» تلقى دعوة لحضور فرح إبنة بطل الحرب و عندما كشرت له عن غيظها متسائلة:

_ وأنت مالك..!؟ هو كان يسعى للسلام

هز كتفيه بكل بساطة قائلا:

_لا ولكن قد تعكر مزاجي من هذا.. فلماذا يدعو بطل الحرب مثل هذا الملياردير اليوناني.. لفرح إبنته !؟

وتمضي الأيام وهو سادر في غيه ممتنعا عن وضع نهاية لهذا العناد الذي كان يتمسك به وكأن فيه نجاته من خطر داهم ..سنوات تعاقبت مثل حبات

السبحة بين أنامل تقي ورع ..! منذ تزوجته ومنذ توفي والده..ومثل عدد حبات تلك السبحة أيضا وهو «ياربي» لا يتقدم نحو تنفيذ وصية والده خطوة واحدة ..! وكأنما هذا العناد له..!.. إنه يوشك على التقاعد من وظيفته بمجلس المدينة كمدير للإدارة الهندسية التي تقوقع داخلها لا يؤدي من نشاط غيرها ولا يشارك في أي نشاط إجتماعي أوثقافي أو حتى ديني أو رياضي وناهيك عن ممارسة حقوقه السياسية مثل المشاركة في الاستفتاءات و الانتخابات ..وكثيرا ما وقع .. كما تذكر زوجته..في مطبات مع الآخرين حين يسألونه عن تذكرته الانتخابية أو رقمه الإنتخابي . إنه يجد نفسه في مواجهة حرج شديد إن كشف عن حقيقة عدم قيده في جداول الانتخابات أو إن تظاهر بغير ذلك وكذب!! فضلا عما يسببه إهماله تنفيذ وصية والده من شديد الألم و الشعور بالذنب تجاه هذا الأب العظيم الذي لا يداينه أحد في حنكته ووقاره و حبه لأولاده..فلماذا التقصير في حق ذكرى هذا الأب..؟ إنه لا يعدم العثور على الأسباب التى تبرر له ذلك من قبيل الأحداث الجسام التى تواجه الوطن كما قلنا والتي تكون من المكدرات لصفاء ذهنه ومزاجه ! ومن المعكرات للمياه الراكدة في أعماق نفسه!.. !.. وفي الأعوام التالية ماكان أكثر وأيسر هذه الحجج ابتداء.. فمن اتفاقية فض الاشتباك التى كانت تكفل لاسرائيل الإنسحاب على مراحل وآجال زمنية طويلة ..إلى اتفاقية السلام التى أتت بالسلام البطئ الذي يسود بطلوع الروح ..!..وإذا كان ذاك العام خيم عليه الحزن من غرق العبارة «سالم اكسبريس»فإن حرب الخليج الأولى هى ما أعاقه عن إستخراج تذكرته وما أعقب ذلك من تداعيات استغرقت عشر سنوات الى أن جاءت أحداث «١١سبتمبر» عام ٢٠٠١و البطش بأفغانستان وإهدار كرامته ! ثم فيما بعد الحرب على العراق وإحتلاله.. إلى آخر هذه الأحداث الوطنية والقومية التى لم ير فيها إلا رادعا له عن استخراج تذكرته الانتخابية بعد تعكير صفاء نفسه ومزاجه و كأنه كان يخشى بهذه التذكرة المشاركة في الذنب الدولي الذي ادى الى الفتك بهذه الاوطان !.

ولكن الان .. ماذا يسمع .؟». أنشودة يا حبيبتى يا مصر « يتعالى صوتها في الشارع ..يتجاوب صداها في جميع الاركان ..لا ليس صوت المذياع هذه المرة.. إنها أصوات حقيقية زاعقة ..!أصوات من ؟ من ؟ ..توجه الى الشرفة يطل منها .. ماذا يرى؟..جموع من الشباب و الأطفال والشيوخ والنسوة خرجوا الى الشارع الذي يعج بالسيارات التي تطلق أبواقها مختلف أنواع النغمات المرحة مختلطة مع هتاف الجميع :

_ يا حبيبتي يا مصر.. يا مصر.!

وهذه الأعلام ترفرف في الأيدي ومن نوافذ السيارات وعلى واجهات المحلات التي تزينت بالأضواء المتباينة الالوان لا سيما ألوان العلم الذي أضاء خدود البنات قبل البنين؟وفي القبعات الطويلة»التي تشبه الطربوش لكنها الى قبعة « العم سام» أقرب وعلى الحقائب الحريمي وفي الخصلات المشدودة لأعلى للشعر المنفوش المستعار وفي الالعاب النارية في الأيدي والسماء .....

هتف متسئلا وزوجته الى جانبه :

._ رباه ..ماذا ..حد ث ؟

تمتمت زوجته بكلمات لم يفقه معناها لأول وهلة عن فوز المنتخب «القومى « ببطولة افريقيا للعام الثانى على التوالى ولسادس مرة فى تاريخ البطولة .

همهم وعيناه تومضان وبذهن شارد متسائلا :

_ بطولة افريقيا .. بطولة افريقيا ؟

وسكت هنيهة يفكر ثم واصل كأ نما اكتشف اكتشافا عظيما :

- أّ ه ..يذكرنى هذا النشيد الذى يصدح فى مكبرات الصوت بأيام عظيمة عن حبيبتنا مصر ! ما اجمل الذكرى ..ما اجمل الذكرى ..!

قالها بانفعال شديد ووثب من المكان قاصدا الخروج الى الشارع بين نداءات زوجته له الا يذهب بعيدا وحرصها ان تذكره الا يغيب .

لكنه غاب طويلا فى تلك الليلة غاب وتاه وسط زحام الجموع التى راحت تجوب الشوارع طوال الليل تهتف وتغنى وترقص وتتفاخر بانتصارها ذلك

الانتصار الذى جاء فى وقته ليغذى الروح المفقودة بالوطنية وبالانتماء والسعادة حين يتغنى المواطن بمصريته بل اكثر وكأن حلم الوحدة العربية يتحقق حين تغرد الشعوب العربية كلها بمصرية خالصة وكانها تناست هويتها الاصلية للحظات وهى تشارك أشقائها فرحتهم وبهجتهم وحاصة فى الوطن الفلسطينى حيث شاهد صاحبنا فى شاشات العرض للقنوات الفضائية التى تنقل أصداء الحدث بالشارع صورة الحكم الذى ما كاد يطلق صافرة النهاية معلنا فوز الكتيبة المصرية على اسود الكاميرون حتى اندفع الفلسطينيون فى الشوارع يتعانقون دون ان يفكر اى فرد منهم ان كان ينتمى الى فتح او حماس ودون ان يعكر صفو احتفالهم انقطاع الكهرباء او خلافات القادة ..ماذا.. ماذا حدث ..؟ تساءل صاحبنا .. الشعوب العربية عن بكرة ابيها تشارك .. انه يشبه نصر اكتوبر العظيم.. اجل.. انه يتذكر تلك الايام المجيدة ..يشم رائحتها.. يتنسم اريجها العطر ..وفى الكويت - على شاشة العرض الكبيرة فى الشارع - رأى مع الجميع كيف احتفل افراد الشعب العاديين مع اشقائهم المصريين بالفوز حتى فجر تلك الليلة وتبادلوا الحلوى والمشروبـــات فى الشوارع وفى الامارات وقطر وسوريا وفى السعودية ومعظم الاوطان العربية احتفل الجميع وتبادلوا التهانى مع بعضهم ومع المصريين وتعطلت حركة المرور-فى شوارع العواصم العربية الكبرى وبات صاحبنا ليلته فى الشارع ولم يعد الى بيته وتوجه الى المطار تدفعه الجماهير التى احتشدت فكان فى زمرة المستقبلين لمن شرفوا مصر والعرب بالانجاز الكبير وفى طريق عودته عرج على قسم الشرطه وأدى امرا كان مفقودا ! واستقبلته زوجته بالبيت بانزعاج متسائلة :

_ اين كنت يا رجل ؟ خفت عليك من الزحام ...!

قال وقد تورد وجهه من شدة سروره وفرحته وبلهجة من فتح الله عليه فتحا مبينا :

_ أقسمت الا اعود الا بعد ان .....

_ ان ماذا ؟

سالته زوجته مقاطعة فاستتلى قائلا وهو يبرز لها تذكرة حمراء ويلوح لها بها كما لو كانت شهادة نجاحه :

_استخرج تلك التذكرة الحبيبة !

وتحول الى النافذة ينظر من حلال زجاجها المغلق الى السماء واثناء ذلك يتمتم فى شدو بصوت خفيض كما لو كان يهدهد طفلا :

_ نامى ايتها الروح فى فيض الرحمة الالهية نامى ..! قد صحت روحى .. يارب تفضل صاحية هكذا على طول ..

ثم رفع عقيرته بالصياح مناديا :

_ يا بروجى نظرة فى كل ميدان .. نوبة تشجيع وصحيان .. ٢٥ أم ٣٠ .. الأيام دول وأمنا ولادة !

قائد الأحلام

قرية العريف عبده مراسلة مأمور مركز الشرطة كانت تزهو مع عدة قرى اخرى تجاورها بأنها تقع على فرع النيل مباشرة ولم تكن تقع على ترعة او جنابية ! ولهذا اشتهرت مع باقى شقيقاتها فى دائرة المركز بانها قرى « خط البحر» تمييزا لها عن باقى القرى التى لا تنعم باطلالها على فرع النيل والتى سميت بقرى «خط البرية» !.. وتصل اهمية هذه الشهرة ذروتها فى وجدان ابناء القرية والقرى المتاخمة لها فتراهم فى المحافل والاجتماعات التى تنعقد فى عاصمة المركز كتلة واحدة تطوق الآفاق بثقلها السكانى لاسيما فى اوقات الانتخابات المحلية والعامة وكان تشبيه كتلة « إن وأخواتها « ! مثارا لتندر الكثيرين عندما يفوز احد المرشحين فيجوب القول « طبعا فوزه كان متوقعا وحتميا لان الموضوع كان فيه « إن «! جميع الارجاء وكلما وقعت كارثة عامة كانزلاق حافلة فى النهر او سقوط الصقيع على المزروعات واحتراقها يقال « نهر «أ و» زراعات خط «ان واخواتها « ! حيث كانت القرية مشهورة ايضا بزراعة «الخضر» هى وباقى قرى الخط ! وليست هذه كل مقومات الشهرة .. بل كان هناك مقوم داخلى هام فقد انقسم اهلها فريقين احدهما مع « العمدة « والاخر « مع « شيخ البلد « وكانت القضية الرئيسية التى تشغل بال القوم والتى يجرى التناحر من اجلها وبسببها تتمثل فى الاصوات التى رفعت عقيرتها بالصياح :

- كيف يكون «ابو البنات « عمدة .. وابو» البنين « مجرد شيخ بلد ؟.. !

وكثيرا ما كانت تحتدم المناقشات حول هذا الموضوع الحيوى الهام وتنتهى بتشابك الايدى والعصى والفئوس ! وتأتى الشرطة وعلى رأسها مأمور المركز لاطفاء الحريق ومصالحة الطرفين المتصارعين بالمحايلة وتقبيل الرءووس فلم يكن يجسر على توقيف اى من اتباع الخصمين اللدودين لردع مثيرى حرائق الفتنة مخافة ان يميل عدد الموقوفين ناحية هذا الطرف او ذاك أكثر فتقع الطامة الكبرى باتهامه بالتحيز وعدم الحياد ..

التجربة والخبرة السابقة حصنته ضد هذا الاتهام الخطير وأملت عليه ان

يقتصر دوره وشرطته على اصلاح ذات البين واعادة المياه الى مجاريها فقط .
كانت الخطورة تتمثل فى ان وراء كل طرف عائلة كبيرة متعارضة المصالح هى التى تستقطب الاتباع والاذيال من الفلاحين أهل القرية ..
وكانت عائلة العمدة تحمل كنية واسم شهرة هو «المشنب» !
اما عائلة شيخ البلد فتشتهر باسم «الارنب» ! رغم ان الكلمة المثيرة للغيظ والغضب لم تكن من المكونات الرسمية لهذا الاسم !»فكيف يعلو الارنب على المشنب مهما كان الارنب طويل الشوارب ؟!
هذه كانت اجابة باقى القوم فهل كان هذا سر العصبية فى التعامل وانقسام الاهلين الى شقين كل شق قوى بحجته ؟ . لا لم يكن ذلك وحده اذ كانت هناك مشاحنات تقع يوميا تقريبا بين الشباب العامل فى الحقول من العائلتين على حقوق استعمال المنافع العامة المرتبطة بالارض من مراو ومصارف وطرق وعلى حدود تلك الاراضى بوجه خاص وكان لهيب هذه الاحتكاكات يتطاير شرره فى مواسم الانتخابات وهى تدق الان بأكفها الابواب ولابد للمأ مور من معجزة حتى يلتئم شمل القرية ويندمل الجرح الذى خلفه سعار التنافس فى السابقة .. كان مأمور المركز من اكثر الوجهاء والمسئولين الذين لا يألون جهدا فى البحث عن تلك المعجزة وكان يسانده فى ذلك نائبا مجلس الشعب عن العمال والفلاحين ورئيس المركز وكذا أعضاء المجلسين التنفيذى والشعبى ولما اعياه العثور على صيغة توفيقية يستقر بها الامن ويتعايش أهل ٱلقرية بسلام نبعت فى رأسه فجأة فكرة المعية جعلته يتيه فرحا ويدق بيديه على جانبى تلك الرأس « هى ان يتصاهر شيخ البلد والعمدة بصلة نسب «..لم يكن وحيدا فى مكتبه ومع ذلك وقف أمام النافذة ينظر الى بعيد والى لاشىء وطفق يفكر بشدة فى وسيلة ناجعة يتحدث بها الى شيح البلد دون ان يراه احد .
فكر اولا فى ان يدعوه الى مكتبه ثم استبعد هذا الخاطر لانه غير محمود العواقب لما يثيره من فضول اتباع العمدة واتباع شيخ البلد على حد سواء

ثم لما طال به الفكر ودعته أعماله للانتباه فكر فى ان يدع الامور تجرى فى اعنتها وحتما ستأتى مناسبة يزور فيها القرية ولن يعدم فرصة يخلو به ولو للحظة ثم مالبث ان استبعد تلك الفكرة ايضا لما تنطوى عليه من مخاطر الانتظار فقد يكون هناك ثمة من يفكر نفس التفكير ويسبقه لاسيما وان بنات العمدة « مال وجمال ودين «ويكفى ان أباهن العمدة .وبعد ان خفت حدة العمل عاد الى التفكير العميق واخيرا اهتدى الى ماكان يبحث عنه وضرب رأسه ثانية بجمع يديه والمحيطين به ينظرون اليه فى عجب وكأن مأمورهم الهمام قد مسه « جن « حتى تصدر عنه تلك الحركة غير اللائقة بمن كان فى مثل مقامه الا اذا كانت ظنونهم فى محلها وهو يردد بصوت مسموع :

- تاهت ولقيناها ..تاهت ولقيناها !

وتسلل فى غفلة من هؤلاء المساعدين البلهاء الذين لا يمثلون بالنسبة اليه غير صوت رجع الصدى كلما تحدث اليهم طالبا رأيا أو مشورة وغاب فى احدى الغرف بضع دقئق وافتقده هؤلاء فظنوا انه انصرف لبيته المجاور للمركز وتشاغلوا

عنه بأمورهم الشخصية و خرج هو للشارع متحفيا فى ثياب فلاح بالرداء السابغ الازرق والطاقية الصوف البنية والحذاء « الاجلاسيه ابو رقبة « ! وتوجه الى القرية راكبا المواصلات العادية امعانا فى التمويه الذى يجيد فنونه كرجل شرطة ومأأسرع ان وصل وانسل داخلا من البوابة الخارجية الكبيرة المفتوحة على الوسع دوما علامة على الكرم والاستعداد المستمر لخدمة اى شخص بلوذ بصاحب المكان وما ان استقر به الاختباء بين اشجار الحديقة الغناء التى تلى البوابة أجال بصره فيما أمامه فرأى شيخ البلد يتوسد الأريكة المريحة - التى وضعت له فى الصدارة امام البوابة والتى اعتاد الجلوس عليها لمقابلة اتباعه ومريديه - وحوله خلق كثير واّ ثر ان يتريث ولا يخرج اليه الا بعد انصراف اّ خر فرد من أشياعه وأتباعه .. وأمسك بأنفاسه لئلا يصدر عنه

صوت ينبه أحد اليه وثابر على وقفته تلك وقتا طويلا .
كان الوقت يتقدم نحو صلاة العشاء .. وتعالى الآذان فى مئذنة الجامع القريب وبدأ الأنصار يدركون أن أوان انصرافهم قدأزف فلا يليق أن تؤذن العشاء للصلاة ولا ينشطون لأدائها فيأخذ شيخ البلد عنهم فكرة سيئة !
وجاءت اللحظة التى كان ينتظرها المأمور حين صار الشيخ وحده فخرج من مكمنه على حين غرة امتقع لها محيا الرجل وخال ان « أحد الأعادى» يهاجمه فرفع عصاه فى وجهه وتأهب للمنازلة ولم يتعرف عليه - فى البداية - وأوشك أن يفلق رأسه بعصاه من شدة الجزع لولا أن عناية الله صورت له وجهه تحت ضوء القمر - وهو بدر فى ليلة أربعة عشر - فلم تكن هناك حاجة ماسة لاشاعة نور المصابيح المنتشرة بانتظام على مدخل المنزل وفوق السياج المحيط به وما تعرف عليه حتى شهق من المفاجأة وتمتم بصوت مبحوح مكتوم فهو يدرك أنه لايجىء لزيارته بتلك الكيفية الا لأمر غاية فى الأهمية :
- حضرة المأمور .. عاش من شافك ! أما والله .. لاحق لك .. أعذرنى رفعت الع .....
عاجله المأمور وقال مقاطعا وهمسا :
- أسمع لاوقت نضيعه انا حريص كما ترى على ألا يعرف أحد بزيارتى .. اسمع ! نصيحة منى أحسن طريقة تكسر بها عين العمدة هى أن تستولى على شرفه !
تساءل مأخوذا :
- شرف العمدة ؟ .. كيف ؟ !
أجابه ببساطة متناهية :
- زوج أحد أبناءك من احدى بناته .. أليس له بنات ؟!
- سبع فى عين العدو !الكبرى أسماها مصر ! والتى تليها سوريا ..ثم لبنان ! .. ففرنسا ! وبعد ذلك جاءت وطنية وحرية واستقلال ! ..

ابتسم المأمور باستغراب وكادت بسمته أن تتسع الى ضحكة كبيرة فيعلو صوته وينكشف أمره لولا انه عجم أحاسيسه فى اللحظة الأخيرة ودفن ضحكته فى أعماقه وغمغم :

- أهذه أسماء بنات .. أم أسماء فرق الانشطة فى مدرسة ابتدائية ؟!

- انه مثلى ومثلك رجل وطنى من الطراز الأول ! .. تفضل اجلس ياسيادة المأمور ..

تساءل المأمور فى قلق خشية أن تنفض صلاة الجماعة ويعود الأتباع :

- شكرا لاوقت لدى المهم ماذا أنت فاعل ؟

- طالما أن سيادتك ترى هذا فأنا طوع أمرك ولا أرفض لك طلبا .. باذن الله سأزوج ابنى صلاح الدين الأيوبى .. آه أقصد صلاح الدين فقط ! من ابنته الكبرى مصر !

قهقه المأمور وقد انفلت زمامه هذه المرة متسائلا وقد بدا عليه أنه غير قادر على كبح مشاعره لطرافة مايسمعه :

- ابنك اسمه صلاح الدين الايوبى ؟!..

أجاب شيخ البلد وقد بدا عليه أنه تورط فى دعابة غير مريحة مهمهما :

- لا ولكن أقصد أن .. اسمه صلاح الدين فقط ..

وسكت هنيهة يلتقط أنفاسه واستطرد متحمسا بغتة :

- والذى يليه اسمه سيف الين قطز .. !.. آ ه أعنى سيف الدين فقط والله ! أما الثالث ..

قاطعه المأمور قائلا بنبرة تخفى بعض التهكم والا ستملاح فى ذات الوقت :

- أظن أن اسمه الظاهر بيبرس !

وانفرجت أسارير الرجل معجبا بطريقة المأمور فى مداعبته واسترسل :

- سبع أولاد يسدون عين الشمس وحياتك ! رجال بحق ! أتريد أن تعرف باقى اسماء الاولاد ..!

أدار له المأمور ظهره منصرفا فأسرع يلاحقه بتكرار السؤال قبل أن يتوارى -

بعد انفلاته من البوابة الخارجية - خلف السور وسمع صوته الأجش يردد :
- مرة أخرى .. يوم الفرح انشاء الله !
وبعد ذلك بيومين جهز شيخ البلد وفدا من كبار رجال عائلته واتباعه المقربين وتوجه بهذا الركب الى بيت العمدة .. وكانت بشائر مايزمعون قد سبقتهم بزيارة أم « العريس المرتقب « وشقيقاتها - خالاته - ثم تأكد الخبر السعيد بتكرار الزيارة يومين متتاليين وبدا واضحا أنهن تجاوزن مرحلة جس النبض الى مابعدها - حين استشعرن بغريزتهن أن النسوة من آل البيت وخاصة أم العروس تبدين ترحيبا ولكن على استحياء - الامر الذى شجعهن على دراسة شخصية العروس عن قرب للتثبت مما وراء جمال خلقتها ! .
وأدرك العمدة ما يرمى اليه شيخ البلد - على طريقته - فتنمر له وأعد خطة تعجيزية لافشال المسعى الخبيث الذى يروم من ورائه نيل شرفه واخضاعه !
وجاء الوقت الموعود بالتئام شمل الضيوف فى قاعة الاستقبال بعد صلاة عشاء تلك الأمسية وكانت معالم الخطة واضحة فى ذهن العمدة وتتلخص فى أنه لن يطلب لابنته « هدية الشبكة « حليا ذهبا وأ لماسا .. لا ولن يطلب أن يكون المهر نقودا و»عفشا « وانما سيطلب بكل وضوح طريقا يمر من خلال أرض شيخ البلد وآله يوصل الى أرضه وأرض عائلته - تلك المحشورة بين أراضى الفلاحين خلف أرضه ليختصر مسافة الطريق الذى يتحتم معه للوصول اليها الالتفاف حول جميع الأراضى - وسيشترط عليه أن يسمح عرض الطريق لمرور سيارة نقل ! وسيطلب أيضا جنابية ومصرفا صغيرين على جانبى الطريق وضحك العمدة في أعماقه وهو يتخيل وجه شيخ البلدعندما يلقى اليه هذا الكلام وقال لنفسه:
- ألا يريد نهاية حقيقية للخلافات .. ليكن هذا الطلب اختبارا عمليا لحسن النوايا ! وليثبت أنه مخلص فى مد يديه الى بطلب النسب والقرب !
وقد كان وفجر العمدة قنبلته بعدما أتاح لشيخ البلد وقته للافصاح عن سبب الزياره .. ذلك الذى لم ينس أن يدشن كلامه بكلمات أنيقة مثل

«يسعدنا ويشرفنا « يكون جزاءه مثل هذا المطلب الصعيب الذى ينم عن الطمع ! وثارت ثائرة شيخ البلد وأصبح الوفد الذى معه عن بكرة أبيه فى ثورة عارمة وأنذرت العصى فى الأيدى بوقوع المحظورلولا أن السيد المأمور أتى فى اللحظة المناسبة وكان على علم بموعد الزيارة وبادره شيخ البلد وقد سره أيما سرور ظهوره قائلا كما لو كان يستنجد به :

- تعال يا محترم شوف كلام العمدة !

وانشغل المحترم بالسلام على جميع الحضور بضع دقائق قبل أن يقول وهو يستوى جالسا فى مكانه بين القطبين المتعارضين :

- أعلموا أولا اننى أبارك تلك الخطوة واريد من كل قلبى أن تتم على خير وجه .. ماذا عندك ياشيخ البلد ؟

وشرح له الشيخ شروط العمدة بكلمات ملتهبة أثارت النفوس والعصى ثانية وتمكن المأمور بحكمته وحزمه من اعادة السكينة والتريث الى جو المكان ثم كانت ربة البيت التى تدير شئونه على درجة عالية من الوعى والحنكة فأ دخلت فى تلك الآونة المشروبات والمأكولات فتحول الجو من الاستهجان الى الاستحسان بعض الوقت وانشغل الجمع فى الاكل والشرب وفى تبادل الاحاديث الجانبية ووجد المأمور الفرصة سانحة لاقناع شيخ البلد بقبول شروط العمدة فانتحى به جانبا وأسر فى أذنه قائلا :

- ماذا يثير غضبك وغضب من معك .. ؟ خلف العمدة كله بنات .. زوج يارجل كل الأولاد لكل البنات .. زيجة بعد أخرى .. وفى النهاية ستنتقل كل أملاك العمدة بالارث اليك عن طريق زوجات أولادك ! خليك ذكى أنت شيخ بلد !

تهللت أسارير شيخ البلد وبرقت عيناه لدى سماعه اقتراح المأمور وطفق يفكر فيه بعمق وحدث نفسه « فعلا على ان اكون ذكيا فان الارض ستئول الى يوما كلها « ودون ان يأتنس بمشورة أحد من تابعيه ولو تظاهرا تحول الى العمدة وأعلن أمام الجميع أنه يقبل بكل شروط العمدة ولم يابه لاعتراضات

الوجهاء من آله التى كان يقابلها صيحات الاستحسان من آل العمدة .. وكلمة واحدة نطق بها شيخ البلد فى اقرب وأهم فرد يليه من أفراد عائلته صارخا فى حزم وحسم :

- اخرس !

أخرست الجميع !

وجاء يوم الفرح بعد «مشوار» صعب ومعقد من مغالاة العمدة فى مطالبه الذى نكص عن جانب هام وكبير من اتفاقه تحت ضغط « الحريم « وطلب «شبكة» ذهبا وألماسا وطلب أيضا مهرا كبيرا عسى أن يرفض شيخ البلد الذى أصبح فى يده على حد نعت أقاربه الكاظمين الغيظ « شخشيخة البلد « ثم انه عند اعداد « قائمة الجهاز « التى تعتبر «ايصال أمانه» على العريس يتعهد بموجبه بتسليم جميع محتويات القائمة الى العروس وقت طلبها والا اعتبر فى نظر القانون مختلسا ومبددا أصر على ان يضمن القائمة جميع ماتملك من حلى وذهب فضلا عن الاثاث فلم يبد اعتراضا .. الى أن جاء دور المطب الاخير والكبير عند كتابة « عقد القران « فطلب «مؤخر صداق» مغالى فيه وتمسك به مستميتا عسى أن يأبى ويرفض لكنه خنع منفذا جميع مطالبه اوبالأصح أوامره وعبر جميع المطبات وهو يصرف بأسنانه ويكاد ان يتميز غيظا ويرجع الفضل فى ذلك الى سيادة المأمور الذى شهد على العقد و كان يجلس الى جواره يلكزه كلما تسمر او بدا عليه انه يرغب فى ان يستعمل حقه فى الاعتراض .. وطبعا لاحظ أقاربه وأعوانه ذلك لكن احدا لم يجرؤ ان يمس سيرة سيادته بسوء ! وكل الذى صدر عنهم من احتجاج تمثل فى انهم راحوا يضربون أخماسا فى أسداس فى استهجان وعجب قائلين « ان عقل شيخهم الهمام ذهب ! « .

جاء يوم الفرح اذن بعد جهد جهيد واقام والد العريس امام بيت والد العروس نزولا على رغبته « لا كما تقضى بذلك - بالضرورة - العادات والتقاليد فى الاحتفال بليلة الزفاف « سرادقا كبيرا ؤاستدعى فرقة موسيقية غنائية

راقصة شهيرة لاحياء الحفل وتبارى كل طرف فى ذبح العجول وحشد اطايب الطعام والشراب بمختلف الالوان والصنوف واستدعى لذلك طقم كامل من الطباخين والسفرجية المهرة من أحد الفنادق الكبرى بعاصمة المحافظة ! وتم تقسيم السرادق الضخم الى قسمين أحدهما لآل و»معازيم» العريس ويمثل جناحا والآخر لآل و»معازيم» العروس ويمثجناحاثانيا ..وانهمك الجميع تحت الاضواء « الكاشفة « !يشنفون الآذان بالغناء والالحان ويحدقون بأ عينهم التى تكاد ان تخرج من محاجرها فى المغنية الراقصة التى عليها دور ابراز مفاتنها ومحاسنها اكثر من جمال صوتها وبديع اغانيها .. وانهمكوا كذلك فى اجتراع الشراب والتهام بل «لهط» الطعام ! .

وكان كل طرف حريص - كل الحرص - على ابراز انه أكثر ثراء وأعز نفرا .. واستشعر مقيموا الحفل من افراد الفرقة هذا الاتجاه فقاموا بتعميقه لخلق نوع من الجو المرح بين الاهلين عندما كان الواحد منهم او الواحدة ينادى ليسمع كل الحفل التصفيق ويعرف ايهما أعلى تصفيقا ! .

وفى حلال هذا الهرج والمرج حدث ان جاءت جلسة بعض السيدات من آل العريس فى مقدمة الجناح المخصص لآل العروس فطلبت أم العروس منهن أن تلتزمن نظام الحفل وتعدن الى الجناح المخصص لآل العريس فجرى نقاشا بدأ هادئا ثم احتدم فجأ بلا سبب وانتبه الجميع الى مايجرى فصمتوا وكفوا عن الحراك بغتة يراقبون ويصيخون السمع وبعد لحظات ادركوا ان الطرف المعتدى يرفض بحجة أنهن هنا تجلسن فى المقدمة امام المسرح اما هنالك فى جناحهن فلم تلحقن موضعا متقدما وتجلسن فى الخلف بعيدا وكان حوارا ساحنا لم ينته الى نتيجة تحسم الخلاف ..واشتدت سخونته فتبودلت الشتائم والسباب واعتدت ام العروس على ام العريس عندما تدخلت لفض النزاع «فزغدتها « فى صدرها وكانت القشه التى قصمت ظهر البعير فاندلع فى سرعة البرق شجار بين بقية النسوة المحتشدات حولهما ثم كاد ان ينتقل الى نفر من الرجال لولا ان العراك اعتلى خشبة المسرح وطال «كوشة العروسين

« فخطف انتباه الجميع بشدة والعريس يعاتب عروسه الجميلة على مسلك امها قائلا فى تلعثم :
- ايعجبك ..ما فعلت ..امك .. ؟ اترين .. رعونة اهلك ؟!
اجابت العروس بدورها :
- وانت ايعجبك مافعلت امك ؟! .. يعنى اهلك ما شاء الله اعقل !
ولم يعجب العريس لهجة العروس فى مخاطبته امام الملأ فطلب منها بلهجة آمرة الا تتكلم .. وكان مسلك العروس غريبا غاية الغرابة اذ رفعت يدها وصفعته فى وجهه صائحة بأعلى صوت :
- الحقينى يا امى !
فهرعت امها صاعدة وهى تضرب على صدرها بقبضة يدها وتهمهم قائلة :
- يا حبيبة أمك .. من اولها ..تريد ان تذبح لها القطط !
وكان الرد غير المألوف وغير المتوقع على تلك الاهانة البالغة على نفس المستوى امام جميع اهل القرية الذين كانوا قد استكانوا للهدوء يراقبون مايدور امامهم وكانهم يشاهدون قصة سنيمائية سيئة بين العريس والعروس والحماة اذ نطق العريس بكلمات تنسخ العقد الذى لم يكد يجف حبره على الورق وكاد ان يقع مالا يحمد عقباه عندما زغردت ام العريس وهى تعلن عن فرحتها برجولة ابنها ! هاتفة :
- يسلم فمك !
وتعالت اصوات الاحتجاج من الطرفين كل له وجهة نظر هى على حق ! فمن يدافع عن شرف العريس يقول :
- عشنا وشفنا عرايس آخر الزمن يضربون العرسان على وجوههم فى الكوشة !
اما من يدافع عن شرف العروس فيقول :
- عشنا وشفنا عرسان آخر الزمن يطلقون العرايس فى الكوشة قبل الدخلة !
.. وكانها بلا كرامة او شرف ! او كانها ليست ابنة عمدة !

ولولا حضور المأمور الهمام النشط الذى ياتى على الدوام فى الوقت المناسب ليصلح ذات البين ويحل الأمن لوقعت مجزرة .. بيد انه وان كان قد نجح فى الشق الخاص بعمله من احلال الأمن فقدأخفق فى اصلاح ذات البين لأن الامر كان

يتعلق بالشرف وهذا يتطلب وقتا وجهدا فوق العادة ..وانفرط عقد المدعوين بانفراط عقد القران واخذوا فى مغادرة الصوان وأفراد الشرطة يشجعونهم على ذلك ويحثونهم على الاسراع فى العودة للبيوت .. ولم تكن الا من قبيل المصادفة البحتة ان يسمع الناس فى التلفازابان مرورهم على المقهى الوحيد بالقرية صوت ذلك الممثل السنيمائى المحبوب والشهير يتجاوب فى ارجاء المقهى وهو خال قائلا :

- أحسن من الشرف مفيش .. با آ ه .. يا آ ه !!

فأجفلوا جميعا وحملقوا فى الارض وكأنهم بتنكيس أعلام الرءووس يسلمون بقوله .. ومضت عدة اسابيع على هذا الحادث قبل ان يفكر المأمور فى بدء مساعى اصلاح ذات البين فقرر ان يتحول الى العمدة بضغوطه هذه المرة ليقنعه بما له

عليه من تأثير وسحر خاص ان يتصالح ويعيد المياه الى مجاريها قبل انتهاء اجل العدة الشرعية التى تتيح للعريس الذى عقد قرانه مراجعة عروسه واعادتها لعصمته لأن الصالح العام يستلزم نشر الوئام والسلام بين الناس فضلا عن انه سيأتى اليوم الذى تتغير فيه الاحوال - فالدنيا لاتدوم لاحد - دونما حاجة لاقحام المطالب الصعبة فى اتفاق الزواج والمثل يقول « لو صبر القاتل على المقتول لمات وحده « .لكن وقع مالم يكن فى الحسبان وأحبط ماأزمع المأمور عمله فى مهده اذ توفى شاب احتجزه ضابط حديث العهد بالعمل بعد ان قضى الليل بطوله يكرهه على الاعتراف بارتكاب جريمة اغتصاب فتاة صغيرة ! .

وكان للخبر وقع كبير على المستوى المحلى والعام وتناقلته وكالات الانباء

المحلية والعالمية واصبح الشغل الشاغل لجميع الصحفيين والاعلاميين بالصحافة والاذاعة والتلفاز وفى الظاهر كان كل من يقول مهونا «قد يكون الشاب مات منتحرا» او «قد تكون الوفاة طبيعية لا احد يعرف الحقيقة « يضمر فى الباطن رأيا آخر فهو فى ذات الوقت يهمس بان هناك « أصابع اتهام تحوم « وهناك «منظمات تتحرك « و» اجتماعات بين قيادات كبيرة فى الشرطة تعقد « ! وهناك آل

القرية التى كان المتوفى من خيرة ابناءها يترحمون عليه ويتحسرون وكان مؤهلا وهذا هو الاهم للزواج من ابنة العمدة الكبرى ! ويمكن القول بصفة عامة ان ماوقع حفر اخاديد عميقة فى انفس وأفئدة كل الناس سواء ان كانوا اقارب او اباعد وهكذا قويت وحدة قرية «ان «واخواتها على خط « البحر « فى مواجهة اخوات « كان « !

وباشرت النيابة العامة التحقيق ونقلت الجثة الى المستشفى العام بالمدينة وحضر الطبيب الشرعى وقام بمهام تشريح الجثة وارسال عينات الى الم عمل الجنائى ومن ثم صدر التصريح بدفنها وحضر تشييع الجنازة خلق كثير من مختلف الجهات والاتجاهات ومن بعض القيادات المعروفة على مستوى المركز والمحافظة للمواساة وتقديم واجب العزاء ولظروف الوفاة التى لم تزل غامضة - فتقرير الصفة التشريحية ونتيجة تحليل المعمل الجنائى لم ترد -ح وبالتالى احتاط الامن وشدد الحراسة !

ومن جهته احتاط المأمور الطيب ووضع حراسة مناسبة على شخص الضابط وتحاشى ابعاده عن عمله لئلا يفهم من ذلك انه - شخصيا - يرتاب فى أمره وهو امر ليس من العدل اوالحيطة فى شىء وكل الذى فعله مايقتضيه واجبه الوظيفى

من اجراء تحقيق ادارى يتناول ظروف المكان والزمان الذى وقعت فيه الوفاة دون ان يتطرق الى الامور التى تعتبر من اختصاص النيابة العامة .. بل كان حريصا على تحاشى مقابلته ولو مصادفة فى اى مكان ولما تورط ذات

مرة فى ذلك
لم يفعل اكثر من سؤاله عن «صناعة والده « ولم يهتم بالاستماع اليه وأولاه ظهره وان كان قد سمع اجابته فقد كان لصوت الضابط الشاب نبرة طبيعية عالية فغمغم المأمور محدثا نفسه :
- معلم ومربى فاضل .. هذا مالم اكن اتوقعه ! .. حقا ان التربية والتعليم فى محنة ! ولا أحد يريد ان يدرك ان العلة كلها فى غياب العدالة وفى تحاشى التعرض لهبات الريح التى شاءت اقدارنا ان تهب علينا موجاتها المؤثرة من الغرب ! الذى يرفض ان يكون لنا حاضرا متميزا او مختلفا عنه ! مع ايمانه المطلق بأن ناموس الطبيعة يقول « ان الجديد ينبع بالضرورة التى لا خيار فيها من القديم ! وهذا ما يمزقنا الآن !
وفى مرة اخرى تقابل معه فى احدى الطرقات وعن له ولا يدرى لم ؟ ان يسأله :
- كيف دخلت يابنى كلية الشرطة ؟!
بيد انه تردد وكان سبب تردده انه يعرف الاجابة !
ودلف الى غرفة مكتبه وقبع بها وقتا طويلا وغرق فى فكر عميق عن احوال الدنيا وعن علامات الساعة التى تمخض عنها الفساد الذى ظهر فى البر والبحر .. وأشعل سيجارة على الرغم من انه كان فد أقلع عن عادة التدخين منذ أمد بعيد وراح يتطلع الى سحب الدخان الازرق وهى تتسامى وتتسرب من خلال فرجة صغيرة بين الضلفتين الزجاجيتين للنافذة التى لم يحكم اغلاقها على حين انسابت من آلة استماع لايدرى نوعها ومن بعيد الى اذنيه كلمات اغنية كم أهاجت شجنه !وهدهدت أمله الخابى تقول :
- مصر التى فى خاطرى وفى فمى !.. احبها من كل روحى ودمى !
فطفرت من عينه دمعة خئون واطفأ السيجارة التى لم يحرق منها غير القليل وتطرق الى حاله وفيما سيكون عليه اذا ما أتى تقرير الطب الشرعى ونتيجة تحليل المعمل الجنائى مؤيدا اتهام الضابط الصغير وتساءل فى نفسه :

- ماذا افعل آنئذ ؟ .. انه مأزق .. أأتقدم باستقالتى وافتح مكتب محاماة ؟ لاننى مسئول عن رعيتى كما يأمرنى ربى ووطني !

واستبعد هذا المخرج لانه يعلم ابتداء ان احدا لن يفهمه وسيقال عنه انه يتعاظم ويتمرمر مقلدا كبار المسئولين فى دول العالم المتقدم مع اننا الاصل فى تمام مكارم الاخلاق !

ثم عاد وتساءل مخاطبا نفسه :

- أم أكتفى بتقديم طلب نقل الى وظيفة أقل أهمية فى أبعد نقطة على حريطة الاراضى المصرية ؟!

واستبعد هذا المخرج كذلك لأنه سيفتح عليه النار من بعض المنافسين له وسيجدونها فرصة للتقول عليه ويدعون انه لايدرى شيئا عما يدور خلف الابواب فى ادارته وكل ما يهمه ان يدارى بهذا الطلب نرجسيته وتقصيره للافلات من أثرالعقاب الذى يستحقه !

اذن ماذا يفعل حتى يقال ان مصر -ام كل المصريين - هى التى كانت على الدوام فى خاطره وفى فمه وانه يحبها من كل روحه ودمه ؟ وان الذى مات وان كان اسمه صلاح الدين الا انه بن شيخ البلد وليس هذا الليث الايوبى الكردى الذى

غادر وطنه وعمل بنصيحة رسوله فكان ابناء مصر خير أجناده وكانت القدس معركته ومدينته المقدسة التى يبغى ان يحررها لتكون عاصمة سلام العالم ووطنا حقيقيا له وللناس كافة ! ولهذا عاش الى اليوم - مع اختلاف النظرة اليه - فى وجدان كل البشر .

اجل ماذا يفعل هذا الشرطى الانسان الذى ثبتت رؤيته ودخل عليه شيخ البلد مكتبه وسأله عن « اسمه الكامل « فاجابه بدوره دون ان يستغرب سؤاله الذى يتعارض وطول العشرة التى بينهما لكن اسم وظيفته المرموقة هو ماطغى على ماهيته

فكان ينادى به احتراما وتوقيرا ودون ان يداعبه قائلا :

- هلال صلاح الدين .. قادم !
- قادم !؟
تساءل شيخ البلد مأخوذا فجاوبه هلال صلاح الدين قادم فى صبر نافذ متسائلا :
- ياشيخ البلد الم تسلنى عن اسمى الكامل .. ؟ الا تعرف عائلة قادم ؟ !
وتضاحك شيخ البلد وأومأ برأسه فى رضى واغتباط ودمدم :
- اعرفها يامأمور ! كما اعرف المحروسة الولادة !.. وفى هذا خالص عزائى !
وتبادل الاثنان نظرة تفاهم طويلة وساد صمت أخاذ لم يقطعه الا صوت رفيف أجنحة طائر اخضر كهرمانى حط على ضلفة النافذة وراح يحدق فيهما بعين واحدة كأنه يعرفهما وقد أمال رأسه للوراء فى كبرياء وشمم من عل ثم ما لبث ان استخفه الجذل فراح يغرد لهما لحنا لم يسمعا اجمل منه قبلا فتوهما انها روح ملاك تعزف لحنا من الحان الجنة ..لحن الخلود .. وأدمعت أعينهما شجنا وانفعالا وحافظا على نظرة التفاهم التى تبادلاها لانهما فيما يبدو كانا يعرفان صاحب
الروح فقراًّ عليها الفاتحة وهللا وكبرا بصوت خفيض .
وماهو الا ان انهى الطائر الجميل معزوفته الملائكية وتسبيحه بحمد الله ورف بجناحيه ودنا من مجلس الاب المكلوم والشرطى الانسان ووقف قبالتهما ماوسعه القرب وهو يرف بجناحيه رفيفا متواليا وسريعا وصدره وكل جسده مفتوحا عليهما
فى وضع رأسى يشبه وضع الجندى الذى يضرب « تعظيم سلام « لقائده واثناء ذلك يزقو ويشدو كما لو كان يودعهما فتعالت اصوات التهليل والتكبير من حنجرتى الرجلين المشدوهين وانتفضا على ارجلهما يردان التحية فى وضع « تعظيم سلام « عسكرى على أعلى درجة من الانضباط دون ان يقيما اهتماما لاحتمال دخول احد عليها فيراهما وهما فى هذا الوضع ويظن بقواهما العقلية الظنون ! وما لبث الطائر الذى بدت عليه أمارات السعادة

ان تراجع الى الخلف فى طيران راقص كأبدع وأرشق مايكون أداء فتى الباليه الاول حتى بلغ تلك الفرجة فى الشباك فانسل منها خارجا بظهره دون ان يصطدم بشىء كأن له اعين يرى بها ماوراءه وتوارى .

ولم يصدق الاثنان ما رأياه بأعينهما التى اغرورقت بالدموع وشعرا بافتقاده بشده وبرغبة ملحة فى البكاء كالنساء بصوت عال ! لكنهما لدواعى أمنية كظما جهيش البكاء المحزن فى صدريهما وصدر عنهما الحزن فقط ! وكان صوت الاداة

التى تذيع فى الخارج لايزال يشدو :

- مصر التى فى خاطرى وفى فمى !

وألقى المأ مور على نفسه سؤالا منطقيا « كيف يتسنى ان يشدو المذياع او الاداة التى تذيع باغنية واحدة كل هذا الوقت لابد ان احدا يعرف ما احب يداعبنى !» وخطا من فوره مسرعا ناحية الشباك وفتح ضلفتيه على وسعهما واطل منه باحثا

وكله اعين ترى عن مصدر الصوت فاكتشف انه صادر عن صوت « الكاسيت « بالسيارة المخصصة لتنقلاته وكان عسكرى المراسلة « عبده « المنوط بخدمته جالساعلى مقعد القيادة وارجله خارج السيارة الكائنة بجوار السور من المكر بحيث وهو العارف بما يحبه « يقدر على مايبدو فداحة مايعانيه قائده تلك الايام « فقام بتشغيل المسجل وتركه يعيدويكرر نفس الانشودة كيفما يشاء بينما حلق هو بوعيه فى الآفاق البعيدة !

وصاح هلال صلاح الدين قادم به بصوت سمعه جميع من فى ديوان المركز بل كل من فى الشارع :

- انت ..يابو سمبل ..يابو منجل ! .. يا نيله !

وكان دائما ما ينادى عليه بتلك « الكنية» نسبة الى النيل الذى يحبه لا نسبة الى اسم هذا النبات الذى تستخرج منه تلك الصبغة الشديدة الزرقة والذى تعنف به بعض الامهات اولادهن عندما يخطئون !

وكان الفتى يبدو فى غيابه وانسجامه مع لحن وكلمات الانشودة كالمغشى عليه فأعاد نداءه هذه المرة قائلا بكثير من الشفقة :

- يا بنفسج .. يا عبده !

وبمجرد نطقه بهذا النداء رد عليه الجندى وهو يضرب تعظيم سلام ويهتف فى استسلام :

- نعم .. يا افندم !

وقهقه المأمور هلال صلاح الدين قادم من منظره الذى « تلخبط « من صحوته الفجائية على صوته وشنف آذانه بصوت الانشودة بضع لحظات فى متعة ونشوة ثم صاح :

- ارفع صوت المسجل قليلا من فضلك .

ولبى العريف عبده أمر قائده الفريد وكله أنظار تتأمل شخصه الواقف خلف زجاج شرفة مكتبه فى الطابق القانى لمركز الشرطة يتسمع منتشيا من خلال فرجة فى ضلفتيها إلى الغنوة الوطنية الشجية وتساءل وهو شارد الفكر بحب :

- لماذا هو مختلف !؟